الحالة صفر

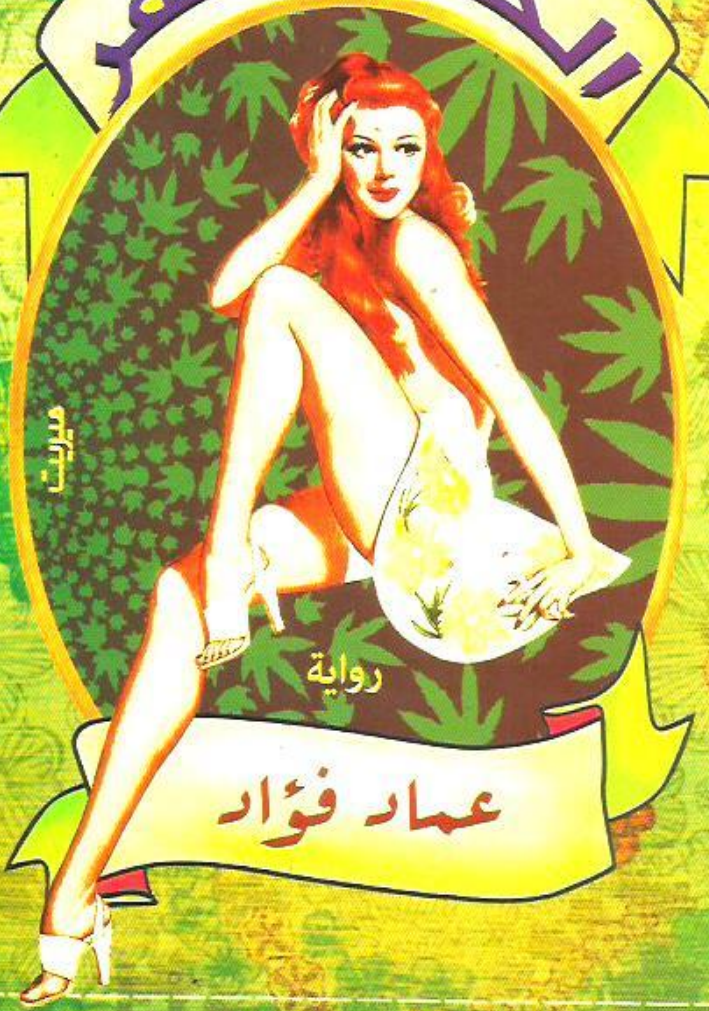

رواية

عماد فؤاد

ميريت

الحالة صفر

الحالة صفر

رواية

عماد فؤاد

الطبعة الأولى ٢٠١٥

دار ميريت

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٢)

موبايل / ١١٤٢١٣٨٩٢٥

www.darmerit.com

info@darmerit.com

المدير العام: **محمد هاشم**

الغلاف: **هبة خليفة**

رقم الإيداع: **٢٠١٥/٢٥٦٣**

الترقيم الدولي: **978-977-351-741-0**

عماد فؤاد

الحالة صفر

روايـة

دار ميريت
القاهرة ٢٠١٥

إلى هاني درويش:

هذا ما وعدتكَ به

وها أنا أفي بما وعدت

الزَّهرة

كالنّائم، ولم أكن بنائم
أفتح عينيّ على وجوه كثيرة تتوالد من بعضها البعض..
وكالحالم، ولم أكن بحالم، أشعر بجسدي يطفو كأنّه فوق ماء، تخفُّ أعضائي وأسير — إن سرت — كما لو كنت أضرب السّحابات تحت قدميّ، الأصوات تختلط مع نداءات وصرخات وهتافات وأغنيّات مبحوحة تأتي من جبّ عميق، وأشعر بكفوف وأصابع كثيرة تجذبني أو تدفعني أو تلامسني في أماكن متفرّقة من جسدي، لا أعرف إن كنت أتنفّس أم أنّ شفتين تطبقان على شفتيّ وتدفعان الأنفاس إلى رئتيّ، فكّرت أنّني بحاجة إلى سيجارة كي أفيق قليلاً وأستوعب ما يحيط بي، رأيت ميشيل منحنية على صدري وهي تصرخ قرب أذني بكلمات لا أتبيّنها ولا أسمعها، كانت تضحك وتملأ الدّموع عينيها الحمراوتين، رأيت عرقاً كثيفاً فوق جبينها وعنقها العفيّ الطّويل، رأيت حبّات عرق شفّافة ومصقولة تنزلق في المجرى الشّهيّ بين نهديها، رأيت خيط سوتيانها التّركواز وميّزت الدّانتيلا الحمراء التي تزيّن حوافّه، هممت بأنّ أقول لها إنّني أريد سيجارة، فحرّكت شفتيّ ولم أسمع صوتاً يخرج من بين شفتيّ، لا أعرف إن كنت جالساً أم راقداً أم واقفاً، لكنّني أحسست فجأة بأنّ حلقي ناشف مثل حطبة، وأريد لو أشرب، حرّكت رأسي يميناً

ويساراً أبحث عن ماء فلم أرَ ماءً، نظرت حولي أبحث عن ميشيل كي أطلب منها أن تسقيني، فوجدتها راكعة بالقرب من قدميّ، شعرها الأحمر مشعّث، ونهداها يكادان يسقطان من عشّيهما الحريريّين، كانت تهتزُّ في حركات هيستيريّة راقصة على وقع الموسيقى، رفعت رأسي شاعراً بكرة من حديد تتركّز خلف دماغي تماماً، فاصطدمت رأسي بشيء صلب، عرفت أنّني جالس وأنّ رأسي سقطت منّي كما لو كانت حجراً واصطدمت بحافة مسند المقعد، زاد الألم من شعوري بجفاف حلقي، فرفعت ذراعي اليمنى لأمدّ يدي وأتحسّس عنقي، كنت عرقاناً، مسحت قطرات العرق عن عنقي وصدري متأفّفاً، ودرت بعينيّ أبحث عن أيّ شيء أشربه لأكسر هذا العطش، وجدت كوباً من البيرة منسيّاً على الطّاولة القريبة منّي، ودون أن أتردّد، رفعته وأفرغته كاملاً في فمي، منتشياً بجرعة البيرة الشّقراء تنساب باردة في جوفي.

كنت دائخاً، وخدر كامل يسري فيّ ويتخلّل مسام جسمي، زادت رغبتي في التّدخين بعد جرعة البيرة المنعشة، فأدخلت يدي في جيب بنطالي أبحث عن علبة سجائري، وجدت القدّاحة ولم أجد السّجائر، نظرت حولي أبحث عن حقيبة ميشيل ذات الزّهور فوق المقاعد المجاورة وبين السّيقان العديدة التي ترقص من حولي، لم أجد شيئاً، كانت هناك حقائب كثيرة، والطّاولة أمامي مفروشة بعلب سجائر من مختلف الأنواع والماركات، قرّبت أصابعي وفتحت واحدة دون أن أرفعها عن الطّاولة فوجدتها فارغة، فتحت الثّانية، الثّالثة والرّابعة والخامسة، كانت كلّها علب فارغة، في إحدى المنافض

وجدت سيجارة أشعلها أحدهم وتركها حتى انطفأت شعلتها، تناولتها وأشعلتها وأنا أشدّ الدّخان بشراهة، تذوّقت طعم طلاء شفاه بين شفتيّ، سريان الدّخان عميقاً في رئتيّ أشعرني بأنّ نجوماً صغيرة وكثيرة تلمع تحت فروة رأسي، نفثت الدّخان بلذّة، فرأيت النّجوم تخرج مع الدّخان وتلتصق بالوجوه التي تهتزُّ وتختلط في بعضها البعض من حولي.

لم أكتشف للوهلة الأولى سبب سقوطي، ربما ترنَّحت أو دفعني أحدهم في رقصه، ربما دُخت ولم أستطع أن أحفظ توازني، لم أشعر بألم نتيجة السّقوط، شعرت أكثر باسترخاء واستسلام لسقطتي، رفعت رأسي قليلاً ودرت بعينيّ في نصف دائرة جهة اليسار، كانت السّيقان هي كلّ ما أراه، سيقان وأفخاذ عارية أو مكسوّة، تحت تنُّورات وسراويل ساخنة قصيرة وضيّقة، سيقان في بنطلونات بألوان مختلفة من الأقمشة والچينز، وجدت عينيّ تتوقّفان طويلاً على ردفين خلاسيّين كانا يرتجّان تحت تنُّورة كتّانية بيضاء، كانا يرقصان ويتحرّكان بخفة ساحرة على وقع الموسيقى، لمحت خيط الحرير الأبيض الرّفيع الذي ما يكاد يُرى، يفرّق بين استدارة الرّدف والرّدف، كان الرّحام قد خفّ، وأصبحت أتنفّس وأنا مستلق على الأرض براحة أكثر، وقبل أن أشعر بالإثارة تصل إلى ما بين فخذيّ، وجدت ميشيل تسقط فوقي بكامل جسدها وهي تضحك، كانت سكرانة تماماً، للتوِّ أيقنت أنّني أيضاً كنت سكراناً، كنَّا مخدَّرين إلى حدّ التّشبع، ضحكتها الهيستيرية التي وصلت إلى أذنيَّ وهي ترمي رأسها فوق صدري، أصابتني أنا الآخر بعدوى

ضحك لم أفهم مبرّره ولم أستطع إيقافه، سمعت حوافَّ كلمات تخرج من فمها وهي تضحك، وما أن أتبيّن كلمة ما منها، حتى تهرس أنياب ضحكاتها وهي تغالب دموعها بقيّة الكلمات، لتخرج الحروف مبتورة الأطراف أو محطَّمة تماماً، فأغرق من جديد في ضحك لا نهاية له.

جذبتني ميشيل وأوقفتني لنسير ونحن نتساند أحدنا على الآخر، كنّا نتمايل ونصطدم بالآخرين، لا أعرف كيف وصلنا إلى باب ثُبّتت عليه علامة الخروج الخضراء، دفعت الباب بذراعي الأيمن فيما يرتاح ذراعي الأيسر كلّه فوق كتف ميشيل، انفتح الباب على درج واسع أقلّ عتمة من الدّاخل، كان للدّرج اتجاهين، عن يميننا درج هابط وعن يسارنا درج صاعد، تركت الباب ينغلق وتهاويت على الأرض وظهري للحائط، تهاوت ميشيل جواري وهي تضحك، لم نكن وحدنا على الدّرج، كان هناك آخرون يتوزّعون فوق الدّرجات الصّاعدة أو الهابطة، كانت رائحة المكان خليط عجيب من الرّوائح، شممت أدخنة ماريجوانا وحشيش وعطور نفّاذة ومَنيّ ورطوبة وطلاء جدار حديث، أعطتني ميشيل سيجارة وما أن أشعلتها حتى مالت على أذني وهمست بشيء ما لم أتبيّنه، ثم وقفتْ وفتحت الباب ودخلت قاعة المكان التي غادرناها للتوّ.

تجاهلت انصرافها وأنا أشدّ أنفاس السّيجارة بعمق مالئاً رئتيّ بالدّخان، درت بعينيّ في المكان الذي بدأت عتمته تنجلي رويداً رويداً، بالقرب منّي رأيت فتاتين جالستين تلفُّ إحداهما سجائر

ماريجوانا وتنشغل الأخرى بجهاز آيفون في يدها، أسفل الدّرج الموصّل إلى دورات المياه وقف أربعة فتيان في العشرينيّات يتحدّثون بصوت عال، وبدا أنّهم ينتظرون فتياتهم يعدن من الحمَّام، أعلى الدّرج كان ثمّة فتى أسود ضخم يجلس ورأس صديقته البدينة الشّقراء يتحرّك بين فخذيه، كانا مسطولين تماماً ولا يشعران بمن حولهما، قبل أن أستمرّ في النّظر إليهما متتبّعاً رأس الفتاة الذي يتلوّى بين ساقيه، انفتح الباب ودخلت ميشيل وفي يدها الفتاة ذات الرّدفين الخلاسيّين.

لم أفهم الأمر في البداية، لكنّ نظرة سريعة إلى ابتسامة ميشيل الخبيثة جعلتني أستوعب الأمر كلّه، وقفتُ وأنا لا أعرف كيف أحافظ على توازني، وميّزت همس ميشيل وهي تقترب مني:

– أريد أن أقدّم لك سيرينا، من البرازيل.

* * *

أكره المرايا، أكره الانعكاس الذي يتبدّى لملامحي كلّما تأمّلت أثر السّنين على وجهي، تلك الأخاديد الصّغيرة أسفل عينيَّ والتي لا تكاد تُرى، تجعلني أشعر باستسلام لفكرة أنَّ ما مرَّ لن يعود، وأنَّني وإن كنت مازلت صغيرة في العمر، إلا أنّني ضيَّعت الكثير من السّنوات فيما لا طائل من خلفه، عشت حياة عريضة، صحيح، لكنّ نهمي للحياة ما يزال بكراً، حين أسترجع ما مرّ بي خلال سنوات عمري من تجارب وبشر وأماكن، أشعر أنّه كان بمقدوري أن أضاعفه مرَّة أو اثنتين، ثمّة فترات من حياتي كنت أهدأ فيها من سواها، كانت روحي تبدو حينها كما لو كانت قد قطعت مشواراً طويلاً سيراً على الأقدام، وكان عليها أن تستريح قليلاً، أن تغفو كي تصحو أكثر نشاطاً ويقظة، لتواصل مشوارها من جديد، بالنَّهم ذاته، والبكارة نفسها.

المرايا هي العين الوحيدة التي عندما أقف أمامها أكره نفسي، لسنوات طويلة أحببت صورتي في المرآة، أحببت تأمُّل جسدي عارياً مرَّات وتحت الملابس مرَّات أخر، كان جسدي ذاته يتبدّل ويتغيّر حضوره في ذهني مع تغيّر الألوان والموديلّات والموضات، وما من شيء كان يجعلني أصل إلى حالة من الأورجازم النّرجسي، قدر رؤية جسدي يتبدّل حضوره في وعيي من ثوب إلى ثوب، في سنوات مراهقتي جرَّبت كلّ شيء، كان محور اهتمامي الوحيد هو هذا التبدّل السّريع لانحناءات وخطوط جسمي؛ الحلمتان الّصغيرتان وهما تبرزان ويغمقّ لونهما، بطني التي تستدير وتلتفّ بين خاصرتيّ الدّقيقتين، نهداي الصّغيران وهما يبدءان في البروز والاستدارة، ولأنّي

تربّيت حرة تماماً من أيّ تعاليم أبويّة أو أموميّة، فقد كان عليّ أن أكتشف كلّ هذه التغيّرات بطريقة فرديّة تماماً، أو بمساعدة صديقات وأصدقاء طارئين في الأغلب، فأنا لم أعرف رفاهية الصّداقات المستمرّة أو الأبديّة التي أسمع الآخرون يتباهون بها باعتبارها كنوزاً، كان عليّ دوماً الاستجابة لتنقّلات أمّ تبدّل أماكنها كما تبدّل عشّاقها، باولا هي الوطن الوحيد الذي لم أستطع التّخلص منه حتى هذه اللحظة، هي التي علّمتني كيف أكون قاسية بما يكفي، لمحو أيّ حنين أو ارتباط بأيّ شيء أو أيّ شخص، وكان القرار الأخير دوماً يحسم من قبل الحقيبة الخلفيّة لسيّارة الفولكس فاغن القديمة التي تمتلكها أمّي، فهي التي تقرر ما الذي عليّ الاحتفاظ به وما الذي عليّ التّخلص منه، في سنّ الثّانية عشرة من عمري حدث أن تمرّدتُ على باولا وعلى حقيبة سيّارتها، كان ذلك حين قرّرت عدم الرّحيل دون سريري الخشبيّ الذي أهداه لي أحد عشّاقها الأثرياء في عيد ميلادي الحادي عشر، وقبل أن أفرح بالسّرير الوثير كان عشيق أمّي قد قرّر التّخلص منها، وعلى وجه السّرعة.

في ذلك الصّباح، رأيت باولا تدخل الغرفة الصّغيرة التي أقيم فيها وتبدأ في جمع أشيائي المبعثرة بهدوء، كانت تتحرّك في الغرفة مشعّثة الشّعر مرتدية قميص نومها الأبيض الشفّاف، وحين نظرت إليها مستفسرة، قالت إنّ عليّ أن أساعدها وأن أدخل الحمّام لأنّنا سنرحل بعد دقائق، بكيت صامتة وأنا أستعيد الهجرات السّابقة لنا، وعرفت أنّني سأغادر المكان بأقلّ قدر من اللعب والملابس، جمعت

باولا أشيائي الضّرورية في دقائق، وعبّأتها في أكياس بلاستيكيّة، غابت للحظات عن الغرفة وعادت مرتدية أسمال الهيبيز التي كانت ترتديها على الدّوام، لاحظت أن شعرها الغجريّ ترك مشعّثاً على حاله، وجدتْني جالسة فوق سريري وأنا أنظر إليها في تحدّ، فهمت موقفي بسرعة البرق:

– ميشيل، علينا الرحيل، والآن.

بقيت أنظر إليها بالتّحدّي ذاته، فصرخت في وجهي:

– ليس لدينا مكان في السّيارة لسريرك الملعون هذا، سنتركه، هيا.

نطقتُ جُملتي بهدوء فاجأني:

– إمّا أغادر مع سريري، وإمّا تغادرين هذه المرّة من دوننا!

لم تتوقّف باولا عن الشّتيمة والسبِّ لحظة واحدة طوال الطّريق من الجنوب الفرنسيّ متّجهين إلى أقصى الشّمال، كنت أسمعها، لكنّني أصغي بجميع حواسّي إلى رفرفات ملاءات سريري الوثير، التي كان يطوّحها الهواء فوق سطح الفولكس فاغن الخضراء.

* * *

أتذكّر الآن الدّفء الذي اختزنته شفتاكِ من فنجان القهوة السّاخن، وأنا أُقبّلكِ في المقهى التُّركيّ العتيق على شاطئ مارماريس، تعرفين هذه اللحظة من الغياب والذّوبان في مشهد بعينه مرّ عليكِ من قبل، فتغمضين عينيكِ محاولة التّركيز في اعتصار المشهد لحظة بلحظة، للوصول إلى تذوّق قطرة التعتّق الكاملة لما يعنيه بداخلك، هذا بالضّبط ما شعرت به وأنا أغمض عينيّ لأسترجع هذا الملمس الدافئ لشفتيكِ، كنتِ تجلسين قبالتي مرتدية معطفكِ الأسود القطيفيّ، والهواء يطيّر شعركِ فيغمر وجهكِ، لتردّه أصابعكِ بحركة خفيفة إلى الوراء، أستطيع أن أكتب قصائد كاملة في وقع هذه الحركة على روحي الآن، كلّ مرّة بطعم مختلف، بشكل مختلف، بحسٍّ إيروتيكيّ مختلف، سأكتب عن لمسة امرأة لا تعرف أثر هذه الحركة من كفّها الصغيرة على النّاس، الماريجوانا تتيح لي هذه النّعمة؛ نعمة تعتيق الذّكريات، وترتيبها واحدة جوار الأخرى، كما لو كانت كتباً أصنّفها على أرفف المكتبة، نعمة التّركيز في الأحداث، في الشّخصيات والأفكار، من بين جميع المخدّرات والكحوليّات، ظلّت الماريجوانا هي الوحيدة التي تمنحني هذه النّعمة، لذلك لم أكن أفهمكِ حين كنتِ تقفين أحياناً كثيرة في صفّ أثر الحشيش، وتتركينني وحيداً أرفع راية الماريجوانا إلى الأبد.

نعم، لحظة أحسَّتْ شفتيَّ بالدّفء الذي اختزنته شفتاكِ من فنجان القهوة السّاخن، كان هذا المشهد هو غنيمتي الليلة، بعد عدّة سجائر ماريجوانا صافية من أفضل أصناف مقاهي أمستردام، أكره الذّهاب إلى هناك بدونك، ولكن غيابكِ الذي طال لم يترك

لي بديلاً، اضطررت إلى السّفر وحدي لأجلب مؤونتي، واليوم دخّنت أوّل خمس سجائر بعد أربعة أيام كاملة من الحرمان، أحبّ تلمّس أثر المخدّر وهو ينتشر في جسمي بعد فترة من عدم التّدخين، أشعر بأنَّ نجوماً تتلألأ تحت فروة رأسي، وبأنّني صرت أخفُّ وزناً، وأنّ روحي صارت أقرب لي، بالشّكل الذي أكاد فيه أن أتلمّس حضورها الرّهيف بداخلي، هي ليست الحالة التي طالما عشناها سوياً من قبل، لكنّها حالة تشبه يقينكِ بأنّ هذه اللحظة هي لكِ بالكامل، لن يقاسمك فيها أحد، هي لحظتك، خاصتك، وعليكِ أن تبدئي في الاستمتاع بها، والتلذّذ بمرورها عليكِ، كانت كؤوس البيرة تُصبُّ من قبل يدي اليمنى، فيما يدي اليسرى مشغولة بالبحث عن سجائري لأشعل واحدة قبل أن أهمّ بلفِّ سيجارة جديدة من الماريجوانا، حين باغتتني هذه اللحظة؛ لحظة تذوّق أثر الدّفء الذي اختزنته شفتاكِ من فنجان القهوة السّاخن، وأنا أُقبِّلكِ في المقهى التُّركي العتيق، على شاطئ مارماريس.

الذكريات هي الجحيم، تستطيعين استعادتها بالمخيّلة، لكنّكِ لا تستطيعين الرّجوع إلى لحظة وقوعها، تحرقكِ بنارها في الحالتين، وكنتُ أظنّ أنّني بعد كلّ هذه السّنين، أصبحت صانع زجاج عجوز ومدرّب، يعرف كيف يتفادى اللسعات من كتلة الذّكريات السّائلة التي تضعها الماريجوانا بين كفّيه، لكنّني اكتشفت أنّني مازلت أتعلّم كلّ يوم من رعونة كتلة الذّكريات، صحيح أنّني كنت أستمتع بحالة بلورتها وتشكيلها من جديد، بحالة الاقتراب منها وتلمّس نتوءاتها التي سرعان ما تصل بي إلى مواضع نعومتها أو خشونتها، إلا أنّها لم

تحرمني متعة اللسعات من وقت إلى آخر، متعة الوجع المفاجئة التي تلسعكِ في الموضع الذي لم تتصوّري أنّها قادرة على الوصول إليه.

كان يمكن أن تكون لحظة استعادتي لملمس الدّفء الذي اختزنته شفتاكِ من فنجان القهوة السّاخن، عاديّة، لو أنّني رأيتها كذكرى مرّت كغيرها من الذّكريات، كان يمكن ألا تترك في نفسي شيئاً، لو أنّ فكرة أخرى طغت عليها، وحلّت مكانها، كان يمكن أن تصيبني بالأسى لا بالنّشوة، لو أنّني استعدتّها في اللحظة ذاتها التي أدرك فيها غيابكِ عنّي، اقتنعت بأنّ عليَّ أن أتعامل مع نفسي على أنّني مجرّد صانع زجاج مبتدئ، عليه أن يؤمن بأنّ حرفة يديه المدرّبتين، ليست كلّ شيء، عليه أن يتعلّم أن يترك الكتلة السّائلة بين أصابعه على سجيّتها ليرى إلى أين ستوصّله، أن يتركها تستنّ قوانينها بنفسها، وله أن يطاوعها أحياناً، أو يردّها أحياناً.

هكذا، كانت استعادتي للحظة تلامس شفتينا على شاطئ مارماريس، وأنا أنفث دخان الماريجوانا الطّازجة التي تفوح رائحتها من بين أصابع يدي اليسرى الآن، كدّت أن أتذوّق شفتيكِ، أتلمّس لسانكِ، واستعدت بكامل الصّفاء، اللحظة التي ميّزت فيها طعم ريقكِ المعبّق بطعم البنّ، ولسانكِ يتحرّك بين شفتيّ، فيما تخرج يدي عن سيطرتي، لتنسلّ خلف عنقكِ، وتجذبكِ إليّ، أكثر.

استعادة ذكرى القُبلات الجميلة شيء حزين يا ميشيل، لا أحبّ أن أستسلم له، خاصّة استعادة قبلات امرأة مثلكِ، لذلك رميت رأسي تماماً إلى الخلف، وغبت في دخّان سيجارتي الخامسة.

* * *

كعادة صباحات الأسبات من كلّ أسبوع، استيقظت برأس ثقيلة من أثر الصّداع والإفراط في الكحول ليلة أمس، تعوّدت هذه الحالة وألفتها، كما يألف المرء نبتة ظلّ في زاوية غرفته، في البداية أعي أنّني نائم، وأنّ نافذة الغرفة فُتحت قليلاً للتّهوية، ما يسمح بوصول صوت عجلات سيارات تمرق مسرعة أو متباطئة مع نسمة الهواء الباردة، طيف ابتسامة مخاتلة يقترب من شفتيّ وأنا أتخيّلها تدخل الغرفة على أطراف أصابعها، لتتأمّلني قليلاً ثم تتنهّد وهي تتّجه ناحية النّافذة فتفتحها قليلاً وتخرج، أتقلّب وأنا أحاول التخلّص من الثّقل الغريب في مؤخّرة رأسي من أثر نبيذ البارحة، وأفكّر أنّه كان عليَّ أن ألتزم بنصيحة ميشيل وهي تطلب منّي ألا أكثر من الخلط بين أنواع الكحول، فأقوم في الصّباح بصداع مزمن لا خلاص منه إلا مع أوّل كأس بيرة في المساء، لكنّني لم أكن لأكتفي فقط بالخلط بين أنواع الأنبذة والكحوليّات، بل كنت في لحظة ما من لحظات الشراب أبدأ في تخطّي خطوط حمر، لطالما التزمت بها من قبل، وهي ألا أزاوج الكحول بالمخدّر في ليالِ الجمع، كان الخطّ الأحمر يتراءى لي وأنا أصبّ كأساً جديدة، فأتراجع مرّة وثانية وثالثة، لكنّني سرعان ما أمدّ يدي وألفّ عدداً من سجائر الماريجوانا، وتشجّعني ميشيل مرّة بصمتها، ومرّة بتناولها واحدة من هذه السّجائر، فأبدأ في لفّ المزيد، وأنا أرقب شعلة النّار الحمراء وهي تقترب من سيجارتها.

منذ عرفت ميشيل وأنا لا أستطيع تعريف العلاقة التي تربط بيننا، في أحيان كثيرة كنت حتّى لا أتخيّل أنّ هناك شيء ما حقيقيّ،

يمكن أن يجمعنا في شقّتها الصّغيرة كلّ أسبوع، سوى أنّنا متّفقان على قداسة الصّمت بيننا، هذه القداسة التي يتعامل كلّ منّا معها بنوع من الاستسلام والطّمأنينة، كنت أدخل شقّتها في الطّابق العاشر بإحدى البنايات القديمة في قلب المدينة، ودون كلمة واحدة أتّجه لأقف أمام النّافذة الزّجاجية التي تبدأ من أرضيّة الغرفة إلى سقفها، لأتأمّل أنوار البيوت والمحال والعابرين في الشّارع الطّويل، وتبقى هي في الجهة اليسرى من الغرفة، تعدُّ أنواعاً خفيفة من المزّة، وترتّب الأرضية بسجّادة صغيرة وبعض الوسائد لتكون مجلساً لنا، بعد قليل كانت تنطق بكلمة أو كلمتين، لأردّ عليها بهمهمة مكتومة، تفهم أنّه لا رغبة لي في الكلام، فتجلس وتبدأ في التّدخين صامتة، تستمع إلى الموسيقى الهادئة التي تنبعث من جهاز الكمبيوتر المحمول الموجود أمامها.

أرفع رأسي عن الوسادة وأتقلّب ناحية اليسار، وأنا أشعر بتنميل خفيف في عضلات رقبتي، أكاد أحسّ بسريان الدّم السّريع مع كلّ حركة في أوردتي، فأتذكّر ما قاله أحد الأطباء وهو يشرح لي سبب الإصابة بالصّداع بعد شرب الكثير من الكحول:

– يعمل الكحول على سحب كميات الأكسچين الموجودة في دمك، عليك أن تشرب الكثير من الماء واللبن قبل النّوم، كي تعيد إلى دمك نسبة الأكسچين التي قلّلها الكحول.

أشرب الكثير من الماء واللبن قبل النّوم؟! مساكين هؤلاء الأطباء!

* * *

طقطقة فقرات الظّهر، الفرقعات المتتابعة في عمودي الفقريّ التي أسترخي بعدها، وأنا أشعر بتجدّد غامض وغير محدّد في دمائي، كانت وستظلّ الإشارة الأولى التي تعلن عن حالة الهدوء الصّافي التي بدأ يستسلم لها جسدي، أشدّ نفساً طويلاً من سيجارتي وأنا أرفع عينيّ إلى زجاج النّافذة المبلّل من الخارج بمياه الأمطار، أحاول أن أركّز عينيّ على نقطة مطر تنزلق ببطء على الزّجاج الخارجيّ، فتلتقي في انزلاقها البطيء بنقاط مطر أخرى، لتتحدّ معها ويثقل وزنها فتنزلق بشكل أسرع، متهاوية على حافّة النّافذة الخارجيّة، ثمّ تختفي في وسط بركة صغيرة من المياه، سألت نفسي إذا ما كنت أرى الأمور أسرع أو أبطأ تحت تأثير الماريجوانا، ثم فكّرت في أنّ الأمر لا يعدو فكرة غبيّة في الأساس، أن أشغل نفسي الآن بسرعة أو بطء سقوط نقطة مطر على زجاج نافذتي، لسعة جرعة البيرة التي ملأت بها فمي جعلتني أطفؤها بنفس أطول وأعمق من سيجارتي، أعرف أنّني أحنّ، بل ويقتلني الحنين، وأعرف أنّني الآن أنصت إلى الصّمت المهيمن في الخارج تحت وقع قطرات المطر، واصطدامها بزجاج النّوافذ وأسفلت الطّريق في الخارج، في الخارج ليس ثمّة صوت آخر، غير مرور سريع لسيّارة من حين إلى حين، ليس من صوت للعتمة، فقط أنفاس سيجارتي التي أنفخها بطيئة تحت ضوء مصباح كهربائيّ صغير، فيحملها نوره إلى النّافذة المواربة قليلاً من الأعلى، لتختفي إلى الأبدّ، في عتمة الشّارع.

* * *

مثل قرص عجين طريّ قابل للتّشكل والتلوّن، كانت ميشيل تتحرّك أمامي في بدايات الرّبيع بطلّتها الجديدة، شعرها الطّويل الذي كان قبل عدّة أيام أشقر ذهبياً، أصبح أحمر مجنوناً، يلمع تحت الشّمس التي تظهر أشعّتها القويّة خائفة ومتردّدة من خلف الغيوم، أقراطها الفضيّة الثّلاثة في أعلى أذنها اليمنى، تتناقض بشدّة مع الدّبوس الفضيّ الذي اخترق لحم أذنها اليسرى مرّتين، جاهدت كي لا أتفوّه بتعليق ساخر شعرت به ينمو على طرف لساني، وهي تجذبني إليها وتطالبني بعدم الإسراع في المشيّ، هدّأت من سيري وأنا أرقب الوشم الجديد على رمّانة كتفها العارية، واستغربت كيف تتحمّل فتاة بهذه الرّقة، حفر دبوس متواصل في لحمها حتى ينز منها الدّم، لمجرّد أن ترى رسماً غبيّاً كهذا كلّما عرّتْ كتفيها للنّور، لم أفهم أبداً هذا الولع بالوشم وبقطع الحديد التي يُثقب لأجلها الجسد، لمجرّد الرّغبة الحارقة في التميّز، صحيح أنّ ميشيل لا تُغالي مثل غيرها من الفتيات والشبّان المراهقين في رسوم الوشم أو التزيّن بهذه القطع المعدنية، لكنّني مازلت لا أستسيغ فكرة أن تخرق لحمها، في أدقّ أماكنه حساسيّة ورقّة بحلقة فضيّة، لمجرد أن تصبح مميّزة في أعين من يرون عريها.

يدها النّحيفة شدّتني بقوّة فأخرجتني من أفكاري، لأكتشف أنّنا صرنا أمام متجر الكتب الذي تقصده دوماً بدوني، على عتبة المتجر أغمضت عينيها وعصرت أصابعي بين كفّيها بقوّة وهي تتمتم:

– سأجده، لابدّ أن أجده، وإلا

جذبتني وسط أناس كثيرين تمرّ أعينهم بطيئة على أغلفة كتب معروضة تتراصّ فوق بعضها البعض، ثمّ توقّفت وهي تطالع بعينين عصبيّتين اللافتات الحمراء التي تعلو أجنحة المتجر:

– من هنا، الكتب الحديثة، تعال.

شدّتني وسط أقدام تتزاحم يميناً ويساراً، حتى أوقفتني أمام حائط عريض محمّل برفوف أنيقة تحمل كتباً كثيرة، رفّت عيناها بسرعة البرق بين الأغلفة وهي تضع أصابع كفّها اليمنى على شفتيها، مثل امرأة تترقّب حدوث معجزة ما، ظلّت عيناها تروحان وتجيئان دون أن أسمع من شفتيها الصّرخة التي كنت أتوقّعها، فبدأ القلق يساورني، ماذا لو كان الكتاب الذي تريده غير متوفّر في الأسواق بعد، هذا يعني عطلة أسبوع سيّئة، وسهرتين كئيبتين، سألتها حين طال بحثها بين العناوين المعروضة:

– لماذا لا نسأل أحد العاملين هنا عن الكتاب مباشرة؟

فردّت نافذة الصّبر

– ولماذا نسأل، أليس لدينا عينين مثله؟

سكتّ وابتسامة متململة ترتسم على شفتيّ، أدرت رأسي بعيداً أتفرّج على زبائن المتجر، وكعادتي في مثل هذه المواقف، بدأت أبحث في الوجوه التي أمامي عن تاريخ يختبئ خلف ملامح الوجوه وتضاريس الأجساد، صحيح أنّ التزامي بالبحث عن هذا التّاريخ سرعان ما يتبخّر مع أوّل مؤخّرة جيّدة تصادفها عيناي، أو نهدين

غجريّين أقع عليهما، إلا أنّني أظلّ متمسكاً بعادة مراقبة الآخرين، لأنّها تخرجني من مثل هذه المواقف السّيئة التي تضعني فيها ميشيل.

لم نعثر على الكتاب، ولم أقع على تاريخ مميّز خلف وجوه زبائن متجر الكتب، حتى المؤخّرة الجيّدة أو النّهدين الغجريّين، بخل عليّ حظ اليوم بنيل واحد منها، قبل أن نخرج من المتجر تركت ميشيل تطالع رفوف الكتب وقد زاد توتّرها، وتوجّهت منسلّاً إلى أحد العاملين وسألته عن توفر الكتاب لديهم:

كان من المفترض أن يكون موجوداً اليوم، لكن بسبب من مشكلات تتعلّق بشحن الكتاب، سيتوفّر الأسبوع المقبل، معذرة، لا شيء سوى الانتظار!

قالها وهو يهمّ بالانصراف، لولا أنّ يداً بيضاء بخاتم فضيّ صغير يزيّن بنصره، أمسكت بياقة قميصه الأسود:

ولماذا تدّعون في الصّحف بأنّ الكتاب متوفر لديكم ابتداء من اليوم؟

عرفت أن ميشيل وصلت إلى ذروة غضبها، فتراجعت خطوتين محسوبتين إلى الوراء، منتظراً حدوث الكارثة.

* * *

الصّورة ذاتها حين تتآكل وتصفرّ وتهترئ أطرافها، كمن يحاول أن يمنع الزّمن من ترك بصماته على ذكرياته، بأن يخبّئ الحلوّ منها في أدراج سريّة مبطّنة بالقطيفة داخل أدراج مبطّنة بالقطيفة تختبئ بدورها داخل أدراج مبطّنة بالقطيفة، الأسود المصفرُّ والبنيُّ المحروق والرّماديّ الغامق والأبيض البيج تصنع هذا الإعجاز، الذّكريات في حدّ ذاتها لا تعني شيئاً، لولا هذا الإصفرار المسودّ والأبيض المتّسخ والبنيُّ المصفرُّ والرّماديّ الباهت، العيون التي تنظر إلى العدسة الغامضة محاولةً تجنّب أشعّة الشّمس، لم تكن تعرف أنّها تثبّت نظرة خالدة إلى المجهول، واليد الملوّحة في الفراغ ستظلّ تلوّح في الفراغ، دون أن ترتدّ إلى الكتف المجاورة لها، أو تحطّ مثل حمامة متعبة على رأس الطّفلة التي كانت، حتى خصلة الشّعر التي رفعتها الرّيح إلى الخلف لحظة الضّغط على زرّ الفلاش، بقيت في ارتفاعها السّاحر إلى الأبد.

هاتي كفّكِ اليمنى، بأصابعها النّاعمة وأظفارها المطليّة بالأحمر الغامق الذي تحوّل إلى أسود محروق، وارفعيها عالياً، اتركي شالكِ ذا الورود الحمر يهفهف في الرّيح، وتلك الابتسامة المخاتلة كقبضة الزّئبق اتركيها على حالها، وأنتِ تشدّين عودكِ أمام الجدار العاري من الطّلاء، الصّورة ذاتها التي ستصفرُّ في جيبي لسنوات طويلة وأنا أتأمّلكِ كلّما ضربني الحنين إليكِ، الوقفة ذاتها حين كنت تشيرين إلى البعيد طالبة السّير مدّة أطول تحت الشّمس الدّافئة، من قال إنّني قبلت السّير مدّة أطول؟
من قال إنّني رفضتُ؟

الصّورة ذاتها حين تتآكل وتصفرُّ وتهترئ أطرافها، الصّورة لا تعني في ذاتها شيئاً سوى أنّها ورقة ذات وجهين، واحد مصقول مهيّأ لتشرّب محاليل التّحميض، وآخر عاديٌّ، أبيض في الغالب، ليُظهر الملاحظات والتواريخ ويرفض التأثّر ببصمات الأصابع، الآخر هو ما يعنينا لأنّه يحمل بصورة ما شيئاً منّا، هو ما يجبرنا على منحه القداسة اللازمة لنحتفظ بهذه الورقة في ألبوم الصّور، القداسة ذاتها التي تجعلنا في لحظات الحنين الآسر إلى الماضي، نتذكّر بابتسامة حالمة ما كنّا عليه، وعضَّة خفيفة من ناب الذّكرى على بطن شفتنا السّفلى كفيلة بردّنا إلى ما صرنا إليه، المسافة كبيرة فعلاً بين هذه الابتسامة وتلك العضَّة، تشبه إلى حدّ بعيد المسافة بين مفهومينا عن القبلة، وتكاد تتطابق مع اختلافنا في حركة شفتينا حين تتلامسان، المسافة كبيرة فعلاً بين عضَّتي التي جعلت شفتكِ العليا تتورَّم بعد قُبلتنا الحقيقيّة الأولى، وبين ابتسامة التلذّذ التي أهديتنيها وأنتِ تعاتبينني على توحّشي أثناء تقبيلك.

أنظرُ إلى الصّورة المهترئة بعين تحاول تلافي تكسُّر السّطح المصقول، أتغاضى عن الخربشات التي خلّفتها الأيام على الوجوه فمحتها، محاولاً أن أتبيّن ما غاب من ملامحكِ بسبب الأبيض والأسود. الوجوه بلا ألوان كما تعرفين، فلا وجهكِ أبيض ولا هو أسمر ولا هو بنيٌّ ولا هو أشقر، وجهكِ هو وجهكِ، وهذا يكفي كي أراه بلا لون محدّد، انثناءة حاجبيكِ لا تشبه قوسين مفتوحتين فوق عينيكِ، ولا تتطابق رسمة شفتيكِ مع رسمة شفتيَّ، جبينكِ يلمع

تحت الشّمس، وكذلك شعرك المصبوغ، العدسة كانت ذكيّة وهي تلتقط التّفاصيل كلّها، وكانت قاسية.. حين لم تُبقِ شيئاً من التّفاصيل، أظلّ أدور بعينيَّ محاولاً إمساك لحظة البهجة السّاكنة في عينيكِ البنّيتين دون فائدة حقيقيّة، فتعصر يد غامضة قلبي الصّغير: لماذا يا الله خلقت قلوبنا قلوباً؟

حين كنت صغيراً، كان أبي يعدّ لنا جلستنا قبل أن يصوّرنا، لم يكن ينسى شيئاً، بدءاً من الخلفيّة التي ستظهر في الصّورة، وانتهاءً بجلستنا أنا وأشقائي بعضنا في جوار البعض، مروراً بتعديل ياقات قمصاننا نحن الذّكور وفستان شقيقتنا الصّغرى، حتى الخلفيّة كان يجاهد في تغييرها مع كلّ صورة، فتارةً يفرد على الحائط خلفنا قماشة اشترتها أمّي حديثاً لتفصّل منها جلباباً بيتيّاً، وطوراً يجعل جلستنا أمام ستارة النّافذة الوحيدة في الغرفة المستأجرة، أذكر أنه صوّرني يوماً وأنا واقف جوار حائط بعدما خلع ساعته الأورينت وأدخلها في معصمي الأيسر، وأصرّ على أن أرتدي بيجامتي الكستور الجديدة وأن أرفع كُمَّ ذراعي لتظهر السّاعة، كلّما رأيت هذه الصّورة الآن، لا أرى شيئاً من كلّ هذه التّفاصيل، لا أرى فيها سوى أبي، وهو واقف خلف الكاميرا، يردّد لي تعليمات الوقوف، ويحثّني على ضرورة الاحتفاظ بابتسامتي حتى يدوس زرّ الفلاش.

إن خيّرتني بين الصّور التي أعجبتني، فسأختار تلك الصّورة التي لا أعرف كيف استطاع مصوّرها أن يبرز وجودنا ونحن على هذا البعد في الكادر ذاته، وأنا جالس في المقهى المشمس القريب أشرب

قهوتي الصّباحيّة، وأنتِ قادمة بمشيتكِ الوئيدة ترتدين نظّارة الشّمس البُنّية وتبحثين عنّي على مقاعد المقاهي المتراصّة كالتّلاميذ في طابور الصّباح، سأختار صورتكِ وأنتِ تعانقينني حين فاجأتكِ وفتحتُ باب غرفتكِ بعدما أغلقتُ معك الهاتف للتوّ وأوهمتكِ أنّني ذاهب لشراء حاجيات للبيت، وأنّني لن أراك الليلة، سأختار صورتكِ وأنتِ واقفة أمام مرآتك تعدّلين من شعركِ وأنا جالس أشد تنُّورتك الطّويلة على ردفيكِ وأتأمّل الاستدارة السّاحرة والبروفيل الآسر، لهذه الفخذ الحيّة التي أعشقها، سأختار صورتكِ وأنت عارية الصّدر فوق صدري، يدايَ فوق ردفيكِ تشدانكِ عليّ حتى أسمع طقطقة عظامكِ وصوتكِ يئنُّ، سأختار صوراً كثيرة، كلّها بالأبيض والأسود، وسأترك كلّ صور الكاميرا الدّيجيتال جانباً، لأنّها بصورة ما، كاذبة.

أسبوع بكامله، ونحن في مدينة غريبة، لا يعرفنا فيها أحد، ولا نعرف فيها أحداً، لم نحمل الكاميرا مرّة واحدة، ولم نتوقّف أمام باب كاتدرائية لنبتسم أمام عدسة ما...

من أين جاءت كلّ هذه الصور إذاً؟

* * *

في محاولاتنا المستمرّة للسّيطرة على غلاء أسعار المؤونة التي ترتفع كلّ يوم، قرّرنا أن ننتج مؤونتنا بأنفسنا، كان هناك الكثيرون من معارفنا ممّن يزرعون النّبتة في بيوتهم، وهو ما كان يريحهم مادياً لفترة ما، فبدلاً من الرّحلة الأسبوعية المكلّفة إلى أمستردام، كانت نبتاتهم تكفيهم ما بين شهرين إلى ثلاثة، وبما أنّ كلّ منّا يسكن شقّة صغيرة، وليس لأحد منّا حديقة خلفيّة يمكن أن تتّسع لزراعة النّبتة في أمان عن أعين المتطفّلين، قرّرنا أن نكتفي بنبتة أو اثنتين في غرفنا الضيّقة، ذهبنا سوياً إلى محلّ متخصّص في بيع بذور الأصناف المختلفة في المنطقة الرّمادية من أمستردام، ووقفنا حائرين أمام الفتارين الزّجاجية ونحن نحاول أن ننتقي من الأنواع المعروضة خلفها، لم تكن الأسعار مرتفعة كما توقّعنا، كانت بذور الأصناف المختلفة معروضة في أكياس ورقيّة شفّافة تحوي من عشرة إلى ثمانية عشرة بذرة من كلّ صنف، وتتراوح أسعارها من عشرين إلى ما تحت الأربعين أورو للكيس الواحد بحسب كلّ نوع، اختلفنا قليلاً حول أيّ الأصناف سنشتري، قالت ميشيل إنّ علينا اختيار صنفين في البداية لنجرّبهما، وكنت أفضّل أن نشتري كيساً واحداً لنرى إذا ما كنّا سننجح في زراعة بذوره أم لا، فربّما لا تنبت أو تموت بعد أن يظهر برعمها، من يعرف؟ في النّهاية اشترينا كيساً واحداً به ثمانية عشرة بذرة من صنف الأرملة البيضاء، كلّفنا سبعة وعشرين أورو، وحمل الكيس الورقيّ تعليمات زراعة البذور في خطوات سهلة وواضحة، وعدنا خائفين في القطار من أيّ تفتيش من قبل البوليس الهولنديّ لحقائبنا.

وضعت ميشيل كيس البذور في سوتيانها ونحن نهمّ بالجلوس في القطار، وغمزت لي بعينها اليسرى وهي تبتسم، أخبرتها أنّها هكذا تزيد الخطر ولا تنقص

في حقيبة يدك أفضل، على الأقل إذا اكتشفوا أمرنا نخسر البذور وحدها، ويظلّ نهدك سليماً بعيداً عن أنياب ومخالب الكلاب البوليسيّة التي ستمسك بنّا أنوفها.

رأيت الفزع يتجسّد في عينيها وهي تعيد إخراج الكيس من صدرها بحركة سريعة، وتفتح حقيبة يدها لتخبّأه في جيب داخليّ:

أرعبتني!

كان أغلب ركّاب القطار الذي انطلق من محطّة أمستردام الرّئيسيّة من الشّباب الذين بدأوا يغفون من التّعب، من الواضح أنّهم كانوا مثلنا، جاؤوا إلى أمستردام ليلة الجمعة وها هم يغادرونها ظهيرة الأحد، بعد أن قضوا ليلتين من المرح والعربدة، قبل أن يعودوا إلى مدنهم القريبة متزوّدين بمؤونتهم من الماريجوانا والحشيش، وربّما بما هو أخطر مثل الكوكايين أو الأفيون أو الهيروين، غمزتُ لميشيل:

أغلبهم إنجليز وفرنسيّون.

وبلجيكيّون وسويسريّون وألمانيّون، يسمّونها رحلة الحج الأسبوعية إلى أمستردام.

عن يميننا جلست أربع فتيات إنجليزيّات عاريات الفخوذ يتحدّثن لهجة كامبريدج بصوت عال، وبدا أنّهنّ جميعاً يستمتعن

بحالتهنّ تحت تأثير المخدّر، كانت عيونهنّ حمراء ومتورّمة أحاطت بها هالات رمادية من أثر السّهر، أشارت ميشيل لي بابتسامة خبيثة حين رأتني أتأمّلهنّ:

إنّهن خارج الحياة، لو قمت الآن وفتحت ساقيّ إحداهن فتأكّد أنّها لن تمانع.

إنّهن في العشرينيّات يا مجنونة، صغيرات عليّ!

وما المانع، لا تخف، تجرّأ.

كنت فقط أتأمّل حالاتهنّ المرحة وهنّ مغيّبات، وأشمّ رائحة الصّبا البكر في جلودهنّ.

الإنجليزيّات ساخنات، لن تندم!

شكراً.

أنهيت جملتي وأنا أدير وجهي ناحية نافذة القطار العريضة، وأغمضت عينيّ.

* * *

الحكاية ليست أنَّكِ أمامي الآن، وأنّني غير قادر على أن أقترب منكِ، ليست عينيكِ وهما ترمقانني بخجل وجرأة لا أعرف كيف لهما أن يجتمعان تحت جفنين رهيفين كحدِّ خنجر عربيٍّ، ولا حتى لسانك وهو يمسح شهد شفتيكِ، الحكاية أنّني غير قادر على تشمّم رائحتكِ وأنتِ تبتسمين هذه الابتسامة المخاتلة، هل قلت لكِ أنّني أشعر بروحي تُدهس تحت أحذية لا أعرفها كلّما احتجتكِ ولم أجدك، الإنسان كائن هشّ لأنّه يحتاج دوماً إلى من يكون جواره كي يتسنّد مثل عجوز على كتفيه، وأنا أمامكِ الآن، أعرج، ساقي مصابة بعشر رصاصات والدّماء تنزف لتغطّي التّراب السّاخن، ورأسي تدور كأنّني صاعد من موت عميق، وكلّما نظرتِ بعينيكِ الواسعتين إلى عينيَّ، آمنت أن موتي مؤجّل، فكيف أموت دون أن ألمسك؟

الحكاية أنّني لا أستطيع وأنا أمام ملامحكِ هذه، أن أجمع خيوط الحكاية، أتركها تسيل بين أصابعي، لا أعرف بداية الخيط من نهايته، ولا كيف أضمُّه إلى الخيط المجاور، أنا الحائك الماهر أترك الخيوط أمامكِ تختلط وتتشابك وتتداخل في بعضها البعض، لا أريد لشيء آخر أن يشغلني عن النظر بعينين مفتوحتين إلى حدقتيّ عينيكِ البُنّيتين، وهما ترتفعان إلى وجهي، وهما تبتسمان في خجل لا أعرف كيف لي أن أترجمه في لغة، وهما تعتبان على عينيَّ حين تضبطهما متلبّستين بالشّروع في الانحدار الرّهيف بين نهديك الغافلين.

هـل أخبرتـكِ أنَّـني بـالأمس بـتُّ ليلـتي ورأسـي منـدسٌّ مثـل أرنـب بـريٍّ بـين نهـديك، كنـتُ ألتـذُّ برائحـة الـدّفء الغـامض، أتحسّس بأناملي الحلمتين الورديّتين وأنا أرقب استدارتيهما تتكوَّران تحت أصابعي، لم أطمع في لمسهما بشفتيَّ، خفت أن أوقظك من نومـك الهـانئ، وخفـت أن تعانـدني شـفتاي فتعـضَّانك، فكـرة الألم ذاتها صارت ترعبني، كيف لي أن أعضَّ حلمتيكِ فتتألّمين، ما معنى الألم إن لم يكـن هـذا المـزيج الغريـب مـن الاهتيـاج والنّـشوة ومتعـة الانتـشاء الروحـي؟ يحيّرني جسدي، وتحيّرني اشتهاءاته، كيـف لمثله وهـو المخلـوق مـن مـاء وتـراب وصلـصال أن يكـون مثـل ذئـب، لا يعـوي إلّا خلـف جـسدك؛ حـين تتحـرّكين، وحـين تمـشين، وحـين تنظرين إليّ غاضبة، وحين ترفعين يدكِ، لتردِّي خصلة الشَّعر المناكفة عن عينك.

قبل يومين وأنا سائر في الطّرقات خايلتني فكرة أنّني ذاهب إليكِ، حيث الزّحام يمنعني من الوصول، وساقاي ثقيلتان كما لو كنتُ أسير في رمال ناعمة لا أعرف لها نهاية، ظللت أسير وأجاهد في رفع ساقيّ، والزّحام من حولي يخفُّ ويهدأ رويداً رويداً، حتى وجدتّني أقف لا أستطيع مواصلة السّير، وكنت وحدي تماماً، نظرت يميناً ويساراً فلم أجد أحداً، درت حول جسدي فلم أر أحداً، ربَّما كنت أحلم، ربَّما كنتُ في منتصف الحالة صفر؛ مغيَّب قليلاً عن الوعيّ، فوق البرزخ الشّفيف بين أن تكون أو لا تكون، لكنّني رغم ذلك كنت أشعر بعينيكِ تنظران إليّ من علٍ، شعرت بهذا، وأنا أحني رأسي في الأرض..

منهزماً..
ومكسوراً.

* * *

الورقة

لم أعرف أباً لي، كي أتآلف وكلمة "بابا" باولا كانت أمّي وأبي وأختي وجدّتي ومربِّيتي ومُدرِّستي وبيتي ولُعبي وشهرزادي، والقيد الذي علّمني التّمرد على أيِّ قيد، حتى على ذاته، أدين لكوني بلا أب إلى باولا وحدها، لا أعرف إن كنت أدين لها بهذا أم عليَّ أن أغضب عليها وأحنق، الأحادية التي نشأت عليها علَّمتني أن أتقبَّل كوني بلا أب:

أنا يتيمة؟!

كان السّؤال الوحيد الذي استحققت عليه أوَّل وآخر صفعة في حياتي:

أنتِ لست يتيمة، ولم تكوني أبداً يتيمة، أنا أمّكِ وأبوكِ، وهذا يكفي.

لم أشأ أن أجادلها، ومنذ هذا اليوم أنهيت أمر "الحلم الأبويّ" تماماً بداخلي، قتلته وغسَّلته وألبسته ثيابه ووضعته في تابوت من أرخص الأخشاب وأردأها صنعاً، حفرت له قبراً وأهلت عليه من تراب النّسيان ما يكفي، كي لا أعود إليه أو يعود إليَّ، أنا "ميشيل كيزان" ابنة باولا وكفى، حملت اسم عائلة رجل مجهول، كلّ ما أعرفه عنه هو أنّه كان مدرِّس أمّي الذي علَّمها العزف على آلة

الكلارينت، لتصبح متشرِّدة على أرصفة الشّوارع تجمع السّنت على السّنت، لتطعم ابنتها التي هي أنا، حتى اسم عائلة أمّي بخلت به باولا عليّ:

أردت لاسمك رنيناً مختلفاً.

يا لرنّة اسمي المختلفة، لا أعرف من يكون أبي ولا ما اسمه ولا من أين جاء ولا كيف ذهب، لا أعرف حتى إن كان حيّاً أم ميّتاً، من يعرف؟ من يهتم؟ باولا قالت إنَّها حتى لا تستطيع أن تحدّد من يكون، كان ذلك في أحد شتاءات العام ١٩٦٩، متشرّدة حينذاك في إحدى القرى الهولنديّة، بصحبة فتيات مهجّنات من جنسيات مختلفة، جمعت بينهنَّ المصادفات والأرصفة على مقاعد دراسة الموسيقى والعمل في مزارع الزّهور والعنب، وفرَّقت بينهنَّ السّبل والشّهوات وأمزجة الرّجال:

كيف لا تستطيعين معرفة من يكون أبي؟!

وكيف لي أن أعرف، كنَّا بهائم في هذه السّنين؛ نعمل مثل البهائم ونحيا مثل البهائم، نسكر وندخّن المخدّرات ونتضاجع مثل البهائم، لا أعرف من يكون ولا أريد أن أعرف.

في حقيقة الأمر أعجبني هذا الغموض، فأن أكون ابنة رجل واحد، محدّد ومعروف، أستطيع أن أرفع إصبعي الصّغير لأشير إليه بثقة لا تهتزّ وهو قادم من بعيد، وأقول لصديقاتي المتحلِّقات حولي متفاخرة: "هذا الذي يسير متَّجهاً إلينا هو أبي"، ترف لم يثر فيّ أية

رغبة في امتلاكه يوماً، على العكس من ذلك، مسألة أن أكون مجهولة الأب حتى لباولا ذاتها - أشعرتني بقدسيّة ما ميّزتني عن الآخرين، وبحالة من الغموض المحبّب والفريد، جعلت خيالاتي لا يحدّها حدّ في تصوّر ملامح هذا الرّجل الذي زرع بذرتي في رحم أمّي، ومكّنني في الوقت ذاته من أن أمنح حقّ الأبوّة لكثير من الرّجال الذين قابلتهم في حياتي، وشعرت تجاههم بمحبّة تفيض عن حجم قلبي الصّغير، وكان أوّل من جعلته أباً لي — بعد باولا طبعاً - الرّجل الذي ظللت لعامين أفتح نافذة غرفتي على حديقته الخلفيّة، كان كهلاً متقاعداً يبدو فوق سنّ السّبعين بقليل، وذا شعر أبيض طويل وكثيف، في أحد الصّباحات رأيته يعزف على آلة كمان قديمة لحناً حزيناً، كان كمن نسي اللحن ويحاول استعادته من ذاكرة أعلنت خيانتها له، يخطئ.. فيعيد اللحن من أوّله، ينسى نغمة.. فيتنهّد معتدلاً في جلسته وهو يأخذ نفساً عميقاً ليبدأ من جديد، كان يبتسم كمن يعلن تسامحه مع نسيانه، لكنّه لا يخفي عتبه الواضح على ذاكرته، ظللت أرقبه لأكثر من ساعة كاملة، لم أتحرّك في وقفتي ولم أدر عينيّ عنه لحظة واحدة، وهو لم يرفع عينه ولا مرّة إلى أعلى قليلاً، ليرى الطّفلة ذات الأعوام الإثنى عشر، التي تتأمّله من على بعد أمتار قليلة، والتي منحته للتوّ حقّ أن يكون أباً لها، كان يريح رأسه على مقدّمة الكمان كما لو كان يريحها على كتف محبوبة فقدها طويلاً وعاد إليها بعد طول فراق.

لم أسع إلى معرفة اسم عازف الكمان، كنت أعبر كلّ صباح أمام باب بيته ذاهبة إلى المدرسة المؤقّتة، محنيّة الرّأس واضعة عينيّ

على الأرض، هاربة من قراءة اسمه المنقوش على قطعة نحّاس قديمة على يمين بابه، لا تهمّني الأسماء، لا أريد أن أقيّد روح الرّجل الذي جعلته أبي في اسم محدّد، لم أسع أبداً إلى التحدّث إليه، وأبقيت الأمر سرّاً بيني وبين نفسي، حتى قرّرتْ باولا في يوم ما رحيلنا، أعدّتْ حقائبنا السّريعة كالعادة، وحملتنا الفولكس فاغن الخضراء إلى أرض جديدة ولغة أخرى، باولا تجلس أمام المقود وأنا في المقعد الخلفيّ، تلتقي عيوننا في مرآة السّيارة من حين إلى حين، دون أن ينطق أيٌّ منّا بحرف، تعلّمت أن لا أسأل عن سبب رحيلنا أو إلى أين سنذهب، فباولا لم تكن تملك أجوبة كالعادة، وحين كنّا نصل إلى مكان ما، كنّا نبيت الأيام الأولى في السّيارة التي نركنها في الشّوارع المعتمة، قبل أن نعثر على مكان نحيا فيه، والذي كان لا يتعدّى في أفضل الأحوال غرفة في سقيفة بيت، أو طابقا أوّل في بناية قديمة على أطراف المدن.

أنا ميشيل، ابنة باولا، والآباء الذين خلّفتهم في بيوتهم المتباعدة دون أن يعرفوا أنّني ابنتهم، أنا علامة الاستفهام الكبيرة في عين أمّي، التي كانت تكبر وتكبر كلّما أطالت النّظر في وجهي وسرحت في البعيد:

لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟

لا...، لا شيء، فقط أحبّ أن أتأمّلك.

تتأمّلينني؟ أم تبحثين عنه في وجهي؟

- لا...، أبداً.

وبعد فترة صمت تطول أو تقصر، تتنهّد باولا:
صرت امرأة مخرّفة وعجوزاً، حتى أنّني لا أملك في ذهني فكرة عن ملامح الرّجل الذي أبحث عنه في وجهك!

باولا، أيّتها المسكينة..
أإلى هذا الحدّ أفسدتُ كلّ شيء في حياتك؟!

* * *

لم أع أبدًا معنى الحياة إلا وأنا على شفا حفرة من الموت..

هكذا يقولون، جملة مستهلكة ومكرورة ويمكن أن تعثري عليها في عشرات الكتب المكدّسة في البيوت والصّالونات والمكتبات العامّة والخاصّة، لكنّ هذا ما حدث معي للتوّ، حدث هكذا من تلقاء ذاته كأنّه كان يجب أن يحدث، لأتعلّم أنّ هناك من يحتاجني وعليَّ أن أحيا لأجله، عليَّ أن أصارع لأبقى جواره وأحميه وأصونه، أن تسكري وتسقطي من فوق درج تحاولين نزوله، شيء يحدث كلّ يوم لأناس غيركِ، أن تسكري وتسقطي فتكسري ساقكِ أو ذراعكِ، شيء يحدث كلّ يوم لآلاف، بل ولملايين غيري وغيركِ، أن تسكري وتسقطي ويشجّ رأسكِ، شيء يحدث أيضاً كلّ يوم لكثير من النّاس، منهم من يموت نائماً وغائباً عن الوعيّ، متمتّعين بهذه الحالة من التّوهان اللطيف، فلا يتألّمون، ولا تعذّبهم أرواحهم وهي تنسلخ للمرّة الأولى والأخيرة عن أجسادهم، الأثر الوحيد الذي تتركه حالة التّوهان اللطيف هذه، هو شبح بقايا ابتسامة مخاتلة، تبقى مرسومة على وجوههم الميّتة إلى الأبد.

المحصّلة، وباختصار؛ هناك ميتات لا تعدّ ولا تحصى، تحصد الآلاف يومياً وهم سكارى أو مخدَّرون، منهم من مات بعد سقطة كهذه، فشجّت رأسه وبقي ينزف حتى خرجت روحه مع الدّماء التي رسمت هالة حمراء صغيرة تحيط برأسه، كأنّها إكليل شوك أخير، ومنهم من لا تُكتشف جثّته إلا بعد أن تفوح رائحتها، ويطلب الجيران رجال الشّرطة قائلين إنَّ رائحة نتنة بشكل مريب تفوح من

شقّة أو بيت جارهم أو جارتهم منذ يومين أو ثلاثة، وعادة ما يكون هؤلاء المحظوظون وحيدون، وحيدون تماماً، وحيدون بدرجة لا يمكن وصفها، استسلموا لوحدتهم وأنِسوا لها، اعتصموا فيها بالكحول أو المخدّرات، أو بالاثنين معاً، لتخرج جثثهم فيما بعد محمولة على أعناق رجال الإسعاف، وفوق صدر كلٍّ منهم تقرير من الطّبيب الشّرعيّ يؤكّد فيه أن الميتة كانت من أثر الإفراط في الكحول أو المخدّرات، أو نتيجة سقطة شجّت رأسه ونزيف أعقبها قضى على حياته.

رأيت الموت للتوّ يا ميشيل، أو قولي مررت به سريعاً، والمصيبة أنّي لم أكن وحدي، كنت بصحبة طفلين صغيرين غادرت أمّهما التي تعتبرني صديقاً مقرّباً، في رحلة عمل تستمرّ أربع ليال وخمسة أيام، مقابل أجر ماليّ محترم يفوق أجر أيّ جليس أطفال في أيّامنا هذه، حمّمتهما وأدخلتهما فراشيهما بقبلتين على الجبينين النّاصعين اللامعين، كانت رائحة الشّامبو تفوح منهما، عانقاني بقوّة وهما في فراشيهما، وشعرت بين أذرعهما بالمحبّة المنزّهة عن أيّ غرض سوى المحبّة، صعدت بعد ذلك إلى الطّابق الثّالث لأدخّن قليلاً بعد يوم طويل من رعاية الطّفلين، منتوياً أن أسارع بالنّزول لأحصل على حمّام دافئ، قبل أن آوي أنا الآخر إلى سرير الضّيوف استعداداً ليوم طويل آخر معهما، لكنّني أطلت الجلوس أمام جهاز الكمبيوتر، صحيح أنّني نزلت ثلاث مرّات لأطمئن إلى سكون الطّفلين في سريريهما، وصحيح أنّني عرّجت على الحمّام لأفرغ مثانتي مرّتين من أثر البيرة التي تجرّعتها، لكنّني دخّنت كثيراً، وتجرّأت - للمرّة الأولى

كحليس أطفال - ومددت يدي ولففت سيجارة حشيش رخيص مخلوط بماريجوانا وحبوب هلوسة على ما أظنّ، ورغم كراهيتي لهذه الخلطة الرّديئة إلا أنّني دخّنتها بشراهة، لأنّ مخزوني من الماريجوانا الصّافية كان قد نفذ قبل أيام، بعد أن أنهيت تدخين السّيجارة بدأت أعضائي تسترخي، وبدأت أشعر بمزاج رائق، شجّعني على أن أختم يومي بالوقوف عارياً تحت فوّهة الدُّش، لأشعر بالماء السّاخن يسقط في دفعات قويّة فوق جسدي ويزيل عنّي تعب النّهار، قبل أن أعود من جديد إلى جلستي هذه في الطّابق الثّالث، لأدخّن سيجارة أخرى قبل النّوم، نزلت الدّرج الخشبيّ بهدوء محاذراً إحداث أيّ ضجيج كي لا أوقظ الطّفلين، فتحت باب الحمّام وأغلقته ببطء قاتل، أو هكذا هُيِّء لي من أثر المخدّر.

أدرت مؤشّر المدفأة الكهربائيّة وبدأت أخلع ملابسي بالبطء القاتل ذاته، ربما تتصوّرين الآن أنّ لحظة موتي التي مررت بها اقتربت، تفترضين أنّ سقطتي حدثت في هذه اللحظات وأنا أخلع ملابسي، أو ربّما تظنّين أنّني تعثّرت مثلاً وأنا أهمّ بخلع بنطالي، فسقطت لترتطم جبهتي بحافّة حوض غسيل الوجه، ويُغشى عليّ غارقاً في نزيف رأسي، أو ربّما ستفترضين أنّني أنهيت خلع ملابسي بنجاح وحين هممت بالدّخول إلى حوض الاستحمام الورديّ الذي بدأ يمتلأ بالماء الدّافئ، زلّتْ قدمي فسقطت على قطعة الرُّخام المجاورة للحوض، فيغشى عليّ عارياً وراقداً في حوض استحمام صنبوره مفتوح، يضخُّ الماء السّاخن ليمتزج سريعاً بدماء حمراء قانية تسيل من رأسي المشجوج، وبخار يتصاعد إلى الأعلى محوِّلاً مساحة الحمّام

المربّعة إلى مكان غرائبيّ، جائز أن يكون كلّ هذا مرَّ الآن في رأسك، وأنت تنتقلين بعقلك إلى غرفة الطّفلين النّائمين بعمق، وكأنّك تتساءلين: يااللطّفلين المسكينين، ماذا سيفعلان الآن؟!

لكنّني لم أسقط على هذا النّحو، أخذت حمّامي بهدوء، وغسلت أسناني طويلاً و.. ببطء، وصعدت من جديد لأدخّن بضعة سجائر أخرى قبل أن أنام، وكي تتخيّلي الوضع الذي كنت فيه جيداً، أذكّرك بأنّني لم أكن وحدي، كنت في بيت من ثلاثة طوابق، بابه الرّئيسي مغلق بالمفتاح من الدّاخل، والطّفلان الصّغيران نائمان في غرفتيهما في الطّابق الثّاني، وأنا صاعد إلى الطّابق الثّالث لأدخّن قليلاً قبل أن آوي إلى غرفة الضّيوف المجاورة لغرفتيهما، صعدت وقبل أن أجلس على مقعد المكتب تناولت زجاجتي بيرة من الثّلاجة الصّغيرة الموجودة على يمين المكتب، وأفرغتهما في كأس زجاجيّة كبيرة، وتربّعت على مقعدي المواجه لشاشة الكمبيوتر، أشعلت سيجارة عادية وتنهّدت، كنت مسترخياً وأشعر براحة طاغية بعد الحمّام السّاخن، لولا أنّ غيمة من ندم مرّتْ كلمعة برق وأنا أفكّر في عمري الذي مرَّ سريعاً، دون أن أنجح في صنع هذه الحالة الدّافئة من الأمان الأُسَريّ، تمنّيت للحظة لو كنت أباً لهذين الطّفلين، وكي لا أسقط في متاهة التّفكير والشّعور بالنّدم، سارعت وفتحت موقع ألعاب تافها على الإنترنت لأضيّع ما تبقّى من الوقت قبل أن أنام، تناولت سيجارة عاديّة أخرى وبدأت في إفراغها من التّبغ وحشوها من جديد بخلطة الحشيش المخلوط بالماريجوانا وحبوب الهلوسة، لا أعرف من أين جاءتني الشّجاعة لفعل هذا

مجدداً، ففي المرّات العديدة السّابقة التي كنت أقوم فيها برعاية الطّفلين نفسيهما، كنت أمنع نفسي عن المخدّر نهائياً، وأكتفي بقليل من البيرة والتّدخين العاديّ قبل النّوم، لكنّ الليلة لا أعرف ما الذي شجّعني على هذه الجرأة، كنت أنتِ مسافرة مع صديقاتك إلى الجنوب الإيطاليّ في رحلة قلتِ إنّها ستستمرّ أسبوعين كاملين، وكنت أفتقدك، أمسكت هاتفي وجرّبت الاتصال بكِ، لكنّ الوقت كان متأخّراً، وعرفت قبل أن يأتيني صوت الرّنين المتقطّع السّخيف أن هاتفك المحمول مؤكّد مغلق الآن، رميت الهاتف على سطح المكتب وتناولت السّيجارة التي انتهيت من لفّها، وبدأت في تدخينها بهدوء.

مؤخّراً بدأت أولع بلعبة البلياردو على أحد مواقع الإنترنت، أثارتني الفكرة التي تقوم عليها اللعبة، حيث تتيح لك اللعب مع شخص آخر يجلس في آخر مكان من العالم وتتشاركان اللعبة ذاتها لساعات وساعات، فتحت الموقع وأنا أعدل من جلستي فوق مقعد المكتب مستعدّاً لجولة طويلة من اللعب، كان عليّ أن أضرب الضّربة الأولى مفتتحاً اللعبة، تأمّلت الكُرات الخمس عشر المرتّبة في شكل هرميّ وضغطت على زرّ الماوس الأيسر وأنا أجذبه قليلاً إلى الوراء، ثم رفعت إصبعي عن الزرّ فانطلقت الكرة محدثة الـ"Break" المطلوب، سقطت كرتان من النّوع نفسه وكان عليَّ الاستمرار في اللعب، ومن ضربة إلى أخرى حصلت على البطولة التي نافسني فيها لاعبون من بلدان مختلفة، خفّف الفوز في هذه اللعبة الغبيّة عنّي قليلاً، وأشعرني بأنّني أنجزت شيئاً، حتى ولو كان بهذه التفاهة!

امتلاء مثانتي دفعني إلى القيام بسرعة لأفرغها في حوض غسيل الوجه الموجود في حمّام الطّابق الثّاني، كنت أهرول على السلّم مسرعاً وخائفاً من أن أفقد سيطرتي على مثانتي وأبول قبل أن أصل إلى الحوض، فتحت الباب بسرعة وأنا أتقافز بتشنّج محاولاً إخراج عضوي، تنفّست الصّعداء وتنهّدت بحرقة وأنا أشاهد دفق البول الأصفر يملأ فوهة الحوض، سأظل أتحدّث عن هذه المتعة ما حيت، متعة التبوّل بعد شعور قاس بانتفاخ المثانة وامتلائها عن آخرها، متعة حقيقيّة لا تعادلها متعة أخرى، باستثناء متعة القذف بعد جنس طويل وبطيء وممتع وحميميّ، وأنت تضمّ جسداً ريّاناً ودافئاً وناعماً بين يديك، النّبضات الأثيرة التي تضرب نخاعك كلّه لحظة القذف، تستبدل بإيقاع نغميّ غائر وأنت تستمتع بإفراغ مثانتك بعد كمّيات البيرة التي تجرّعتها، ناهيك عن تأثير المخدر الذي يجعل من هذه اللحظة لحظة سحريّة بامتياز، تنهّدت من جديد وأنا أتخلّص من دفقات القطرات الأخيرة، قبل أن أنظّف عضوي تحت الصّنبور بماء دافئ.

تناولت منشفة حمراء صغيرة على يسار الحوض، وجففت عضوي وخصيتيّ وأعدته آمناً ومستسلماً إلى عشّه الصّغير، نظرت إلى المرآة المقابلة لي وهممت بالخروج، لكنّني لوهلة رأيت الدّنيا تدور وتلفّ بي، وتهاويت، كي أكون صريحاً أقول إنّني لم أشعر بنفسي أتهاوى، شعرت فقط بأنَّ خللاً ما أصاب الجدران المحيطة بي، ورأيت السّقف يتحرّك بسرعة كما لو أنّ البيت ينهدّ أو يبدأ في

السّقوط، آخر ما وصل إلى مسامعي في هذه اللحظة هو صوت ارتطام قويّ وآهة مكتومة سمعتها تصل إلى أذنيّ، بعدها لم أر ولم أسمع شيئاً، لم أعرف كم من الوقت مرَّ أو ما الذي حدث تحديداً، وربَّما لن أعرف أبداً، كلّ ما أعرفه هو أنّني استيقظت بعد ذلك على ألم شديد في عنقي وكتفيّ ومؤخّرة رأسي، أفقت على وجع لا مثيل له كأنّني أصحو من موت عميق، حاولت أن أحرّك رأسي فوجدتّها ثقيلة بشكل لا تحتمله عضلات رقبتي وكتفيّ، الشّيء الوحيد الذي أدركته حينها هو أنّني مستلق على وجهي، حتى عيناي فتحتهما بصعوبة، مفترضاً أنّني نائم في الفراش المخصّص لي، لأكتشف أنّني مرميّ على أرضيّة الحمّام، رأسي ملاصق للحائط المقابل لحوض غسيل الوجه، وألم حادّ في كوعي الأيسر، تحاملت على نفسي وحاولت الوقوف، كنت ألملم أطرافي كما لو كنت مفكّك الأعضاء أو أصحو من سبات عميق بعد معركة طاحنة، في النّهاية وقفت للحظات، لأسارع من جديد بالجلوس على أرضيّة الحمّام خوفاً من سقوط آخر، حاولت تذكّر أيّ شيء، بالأحرى حاولت أن أستوعب ما ألمّ بي قبل أن أسقط دون فائدة، وحين شعرت بعقلي ما يزال مشتّتاً جررت قدميّ وصعدت الدّرج الصّغير وفتحت باب غرفة الضّيوف التي من المقرر أن أبيت فيها لياليّ الأربع قبل أن تصل صديقتي، شددت الغطاء عليّ، ونمت.

في تمام السّادسة والنّصف صباحاً أيقظني ابن صديقتي ذو الأعوام السّبعة، كان واقفاً جوار فراشي في بيجامته الزّرقاء المزيّنة بنجوم تتلألأ وأقمار تبتسم، وهو يناديني ويطلب منّي أن أصحو كي

لا يتأخّر هو وشقيقه الأصغر عن موعد المدرسة، قمت متثاقلاً ودخلت الحمّام ودخل هو خلفي، تناولت فرشاة الأسنان الكهربائيّة ووضعت قليلاً من المعجون الأزرق وبدأت في الشّعور بالصّحو يتخلّل أعضائي مع دوران الفرشاة على فكّي صعوداً وهبوطاً، بقى الطّفل ينظر لي بعينين مفتوحتين حتى انتبهت إلى تحديقه، فسألته والمعجون الأبيض يملأ فمي:

– لماذا تنظر إليّ هكذا؟

فردّ بصوت بريء:

كيف تنام وكلّ هذه الدّماء تملأ وجهك؟

رفعت وجهي عن حوض غسيل الوجه ونظرت في المرآة، كانت جبهتي غارقة في دماء حمراء تيبّست وصارت قانية، وقبل أن أغسل فمي من المعجون ألقيت فرشاة الأسنان في الحوض وهرولت صاعداً إلى سريري، كانت الدّماء قد صنعت دائرة حمراء غير مكتملة في موضع رأسي فوق الوسادة، تناولت الوسادة والملاءات وهرولت نازلاً، وما إن فتحت الباب حتى رمقني الطّفل كما لو كنت مجنوناً وقال بنفاذ صبر:

حاول أن تنظّف وجهك بسرعة قبل أن أوقظ الصّغير، سيرتعب لو رآك هكذا.

* * *

لا أعرف من هو، لكنّني أعرف من أين جاء، أعرف اسمه جيداً، لكنّني لا أستطيع نطقه على النّحو الصّحيح في لغته، أدرك تمام الإدراك أفعاله، لكنّني لا أتوقّعها ولا أعرف مداها، علّمني الكثير، لكنّني لم أتعلّم عنه شيئاً، علّمته أكثر، لكنّه تظاهر بأنّه لم يتعلّم عني شيئاً، الحدود التي تفصلنا عديدة بشكل يصعب معه تعدادها أو حصرها، ورغم ذلك تواصلنا حميم وعميق، تآلفت معه بسرعة أشعرتني بالخوف منه، وسكن إليَّ كما يسكن قطٌّ طامع في الدفء في حِجْرِ صاحبته، النّتوءات التي واجهتنا في أيّامنا الأولى أزلناها بهدوء واخترعنا جسرنا الخاص بيننا، حين يغيب كنت أتحرّك وسط النّاس وظهري محميّ بوجوده، وحين أغيب كنت أتعجّل السّاعات كي أعود وأراه، لم يتورّط أيٌّ منّا في تقييد ما بيننا تحت مسمًّى بعينه، خفنا أن نؤطّر ما يجمعنا ونعطه اسماً، فيصبح لزاماً علينا في لحظة ما هدمه أو الفرار منه، تركناه بدائيّاً وعلى عفويته كما بدأ، فنما وسرحت جذوره عميقاً في الأرض، قويت النّبتة واشتدّ عودها، وها هي تثمر ثمرة جديدة، بلون جديد ورائحة مختلفة، كلّ يوم.

* * *

في الطّريق إلى المدرسة، وأنا أقبض على كفيّ الطّفلين كي لا يعدوا منّي في الطّريق، كنت أجاهد كي أتذكّر ما حدث لي قبل سقوطي في الحمّام، لمت نفسي على ما فعلت، واستنكرت أن أسقط ويُغشى عليّ كما لو كنت مراهقاً يجرِّب الخمر والكحول لأوّل مرّة في حياته، عاودني مرأى جسدي عارياً أمام المرآة حين خلعت ملابس نومي، كانت الكدمات الزّرق كبيرة في كتفي وكوعي الأيسرين، تحسّست رأسي جيداً بعد أن غسلته بماء كثير، فوجدت جرحاً في المنتصف بحجم سنتيمتر واحد تقريباً، وحوله دائرة حمراء من الورم والازرقاق تنبئ عن سقطة مدويّة أو اصطدام قويّ بأحد جدران الحمّام، حين فتّشت جسمي جيداً عثرت على كدمة أخرى أعلى أذني اليسرى، كانت خطواتي ثقيلة وبطيئة حتى أنّ الصّبي الصّغير اشتكى من بُطئي:

– هيا، أسرع قليلاً، سنتأخّر هكذا.

تحاملت وأسرعت في المشي كي أتخلّص منهما، لأعود وأحاول تنظيف الدّماء من على ملاءة السّرير والوسادة، كلّ ما سيطر على عقلي في هذه اللحظات كان شيئاً واحداً؛ كيف أزيل من عقل الطّفل الأكبر مشهد الدّماء التي رآها تغطّي وجهي وجبيني كي لا يخبر بها أمّه؟ لو علمت فلن تستعين بي من جديد في مهمّة رعاية الطّفلين أثناء سفراتها، ومؤكّد ستغضب منّي وربّما تقاطعني نهائيّاً، فما فعلته يندرج في باب الحماقات التي لا تُغتفر، لنفترض أنّني متُّ، لنفترض أنّني أصبحت جثّة رجل ملقاة على أرضية حمّام في الطّابق الثّاني من بيت مغلق بالمفتاح من الدّاخل، بيت من ثلاثة

طوابق وبه طفلان في السّابعة والرّابعة من عمريهما؟! وصاحبته التي على سفر عهدت بطفليها إلى صديق ليرعاهما، فتحوَّل إلى سكّير يتناول المخدّر والكحول ليسقط ويصاب بنزيف ويموت، ماذا سيكون مصير الطّفلين لو استيقظا من نومهما على جثّة رجل ملقاة في حمّام بيتهما؟ ما الذي بمقدورهما أن يفعلاه؟ أيُّ صدمة سيشعران بها وهما يحاولان أيقاظي بالنّداء والصّراخ والعويل، فلا يتحرّك فيّ عضو.

تهاويت على ركبتيّ أمام غسالة الملابس التي ألقيت فيها الملاءات والوسادة وملابس نومي، وتحجَّرت عيناي على كتلة الأقمشة التي تدور في الدّاخل، غارقة في مساحيق الغسيل ذات الرّغوات البيضاء والبنفسجيّة، كان عقلي مصاب بشلل يمنعني من التّركيز في أيّ شيء، أو البقاء متمعّناً خلف فكرة بعينها.

كرهت نفسي يا ميشيل، وشعرت بحزن لا حدود له يملأني، فأيّ حماقة فعلت، وأيّ ميتة بائسة ومثيرة للشّفقة والقرف، كنت على وشك أن أنهي حياتي بها، مع طفلين صغيرين يحتاجان حرصي وانتباهي ورعايتي؟

توقّف محرّك الغسالة وأصدر بابها الزّجاجي المستدير تكّة خافتة، ففتحته متفحّصاً الملاءات والوسادة والملابس، لأرى بقع الدّم ما تزال ظاهرة تعلن عن نفسها بوضوح كأنّها تخرج لسانها لي، استغربت أن تسيل كلّ هذه الدّماء من جرح صغير في الرّأس مثل الذي رأيته بصعوبة في المرآة، أضفت المزيد من مساحيق الغسيل

ومساحيق إزالة البقع وأعدتّ تشغيل الغسالة، راكعاً على ركبتيّ متأملاً الدوران الذي لا ينتهي لكتلة الأقمشة.

أعرف أنَّك تلعنيني الآن، وأعرف أنَّ أيّ رجل في مكاني كان سيتوجّه مباشرة إلى المستشفى، خوفاً من نزيف في الدّماغ أو ارتجاج في المخّ، لكنّني بقيت مشلول الإرادة وخائفاً من فعل أيّ شيء من شأنه أن يفضح فعلتي، مرَّتْ ثلاثة أيام من عدم التركّيز لا أعرف ما الذي يحدث لي فيها، أو كيف تنقضي السّاعات في معيّة الطّفلين الصّغيرين، وفي اليوم الرّابع بدأت أعي جيّداً ما يحيط بي، وكانت اللحظة الفارقة بين الغيبوبة والصّحو، جملة خرجت من فم الطّفل الأصغر لتعيد لي الحياة من جديد:

– اللون الأصفر اختفى من وجهك، خسارة، لم تعد صينيّاً للأسف!

* * *

للصّباحات طعوم وألوان، وأجمل الصّباحات تلك التي لا يكون عليَّ الاستيقاظ فيها مبكّراً، وأروعها تلك التي أفتح عينيّ فيها على وجه ميشيل، لذلك اعتبرت أنّ صباحات العطلات الأسبوعيّة هي الأجمل، فعلى غير عادة أيام الأسبوع، والتي يوقظني فيها رنين المنبّه المضبوط على تمام السّادسة إلا الرّبع كلّ صباح، تكون صباحات الأسبات والآحاد مملوءة بدفء استثنائيّ، وبكسل لذيذ وطريّ يستمدُّ سحريّته من غياب فروض القيام بشيء محدّد في السّاعات الأولى من اليوم، يستمدّ جماله الخاصّ من دفء الأغطية التي أشعر بها تحتويني وتضمّني مثل أمٍّ، أو من يديَّ تتحسَّسان جسد ميشيل النّائم جواري، أو حتى تلمُّس مكانها الشّاغر الذي لم يزل يحتفظ بدفء جسدها بعد استيقاظها قبلي كالعادة.

للصّباحات طعوم وألوان ومذاقات أيضاً، ميشيل جعلت لصباحات عطلاتي مذاقات مختلفة ومتبدِّلة بنكهات جنونيّة لا تعدّ ولا تحصى، وأجمل هذه المذاقات أن أفتح عينيّ على رائحة القهوة تنخر مراكز الإحساس في عقلي الخامل، فتوقظه، تتسلّل ببطء ورويّة لتنكأ أعضائي الخاملة فتوقظها من سباتها الليليّ الطّويل، أضع يدي على عيني ثم أرمي أطرافي في كلّ اتجاه، وأشدّ عودي مفرقعاً عظام كتفيّ وفقرات ظهري، قبل أن أتفوه بـ"آآآه" طويلة وممطوطة، تعرف ميشيل جيداً أنَّها ندائي الأوَّل عليها، فتردُّ من داخل الحمّام أو المطبخ بصوت يقاوم نعاسه:

– ظهيرة طيّبة أيها الباندا.

أبتسم وأنا أنظر إلى ساعة الحائط لأجدها تشير إلى العاشرة والنّصف، أتقلّب على بطني دافناً رأسي في دفء الوسادة:

– ما الذي يوقظك مبكّراً هكذا، هل ستبيعين ألبان بقراتك على عتبات البيوت؟

أسمع صوت باب الحمَّام يفتح بهدوء فأرمي نصف عيني من تحت الوسادة لأراها واقفة بتحفّز، يداها في خاصرتيها وهي تزأر في غضب مفتعل، قبل أن تعدو المسافة الفاصلة بين باب الحمَّام والفراش الذي أرقد عليه، لتقفز بكامل ثقلها فوقي صارخة مثل طرزان في الغابة:

– آآآووووو...

أتلقَّى ضرباتها محاولاً التَّمكّن منها:

– الإفطار جاهز، اصطدت لك غزالة رأيتها تمرّ تحت شجرتنا، شويتها في الكهف بعيداً عن العيون، ستأكل أنت حوافرها، وألتهم أنا البقيّة.

لكنَّني أأبى أن أقوم قبل أن أجذبها في حضني وأدخلها معي تحت الغطاء، أستلذُّ بحضنها لعدّة دقائق وأنا أدفن رأسي بين نهديها الدّافئين، تهمس في أذني ويديها تتحرّكان بنعومة فوق كتفيّ:

يكفي كسلاً، هيا.

الخطوات القليلة بين الفراش وباب الحمّام أخطوها بتكاسل مترنّح، أرمي عينيَّ إلى الطّاولة الصّغيرة الموجودة بالمطبخ، فأجدها

مُلأت بالفطائر والجبن والكرواسون والخبز الطّازج، رصّتها ميشيل كالعادة حول ماكينة صنع القهوة التي مُلأت عن آخرها بقهوة سوداء تفوح منها رائحة قويّة، أتحمّم وأغسل أسناني وأخرج مرتديّاً روب استحمامها الأحمر، تضحك حين تراني:

– باندا في روبي الأحمر؟ يوبيييي!

أرفع فنجان قهوتي ناظراً إليها وأنا أرتشف القطرات الأولى بتعبُّد:

كنت أريد أن ننام حتى الليل.

مؤونتنا تضاءلت، لم يعد لدينا ما يكفينا حتى نهاية الأسبوع.

– أمستردام إذن؟

هممم، أمستردام يا رجل، أمستردام.

* * *

ليس لديَّ الرّغبة في التوقّف عن الكتابة الليلة، أشعر أنّني صاف وعال ونقيّ وأبيض، وأنّني خفيف، كأنّني أطفو فوق حلم أراه يتخلّق تحت عينيَّ دون أن يراني، الوجع المفاجئ الذي أصاب عنقي حين حاولت رفع رأسي الآن، جعلني أرجع سريعاً من حالة الطّفو تلك إلى مقعدي الذي أجلس عليه وأنا أخطُّ هذه السّطور، فكّرت في أنّ الكتابة وأنا في هذه الحال فكرة غبيّة، لكنّني أودُّ أن أكتب، أريد أن أقبض على كلّ هذه الأشياء التي تمرّ دفعة واحدة في عقلي، وهي تمرق سريعاً قبل أن تختفي، ورغم هذه السّرعة التي تمرق بها، إلا أنّني أشعر كأنّي عرفتها جيداً، تأمّلتها طويلاً، كأنّي أعيد مرور لقطة سريعة بتقنية الصّورة البطيئة لأتأمّل التّفاصيل بدقّة أكبر، تتداعى الوجوه والجمل وحركات الشّفاه وتلويحات الأيدي وإشارات الأصابع كلّها دفعة واحدة أمام عيني الآن، فأتنهّد، وأشدّ نفساً عميقاً من الدّخان الأزرق لأتبعه بجرعة بيرة مُرّة.

السّاعة الآن الحادية عشرة والنّصف مساءً، في مدينة معتمة في الليل رمادية في النّهار، ومطر غزير في الخارج، أنظر إلى علبتي المعدنيّة لأعدّ سجائري الملفوفة المتبقيّة فأطمئن، أمدُّ يدي إلى الثّلاجة وألتقط علبة بيرة، أتحسّس برودتها المثلّجة بين كفيَّ طويلاً، قبل أن أفتحها وأصبُّها في كوبي الفارغ.

* * *

الطّريق إلى أمستردام بالقطار طويل ومملّ، لكن هدف الرّحلة يهوّن علينا الكثير من متاعب السّفر، كانت ميشيل جالسة أمامي تضع ساقاً على أخرى وقد غطّت في نوم عميق، تأمّلت وجهها الذي اصطبغ بلون برونزيّ مزيَّف من أثر حمّامات الشّمس الصّناعية التي بدأت تولع بها في الآونة الأخيرة، فكّرت في أن أخرج جهاز الآيباد من حقيبتي لأنشغل بتصفّح الانترنت قليلاً، لكن دخول موظّفة القطار إلى عربتنا وهي تلقي تحية الصّباح بابتسامة هادئة جعلني أبدأ في البحث عن تذكرتيّ السّفر اللتين وضعتهما بحرص في حافظتي، تململت ميشيل في جلستها وفتحت عينين جميلتين:

– كم السّاعة؟

– الواحدة والرّبع، واصلي نومك، مازلنا في أوّل الطريق.

– سأفعل.

وعادت إلى النّوم كما لو لم تستيقظ، مددت يدي بتذكرتي الرحلة إلى موظّفة القطار، فأخذتهما وثقبتهما بآلة تشبه الدّباسة المكتبية وأرجعتهما لي قبل أن تلتفت إلى مسافر آخر، أغلقت حافظتي وفتحت حقيبتي الموضوعة بين قدميّ وأخرجت الصّحيفة التي تُوزَّع بالمجّان في محطات القطار وبدأت في تصفُّحها، ثوان قليلة ورنَّ هاتف ميشيل المحمول فانتفضت وهي تبحث عنه في حقيبة يدها التي كانت ترقد بسلام تحت كفّيها:

– هاي موريس... نعم، اليوم، في القطار الآن، أوك، باي.

وهمّت بالنّوم من جديد، لكنّني همست بالقرب من أذنها:

– لن أشتري غراماً واحداً لأحد سوانا، اتفقّنا؟
– أكيد.

قالتها بابتسامة جميلة جعلتني أبتسم.

* * *

الدّليل على أنّني أفرطّت في الكحول أعرفه من فمي، من حركته المتشنّجة في نومي، وريقي الذي تجمّع فوق لساني، هنا تبدأ المجادلة التي لا نهاية لها بين ثقل جسدي ورغبتي في القيام من فراشي، أريد أن أقوم لأغسل أسناني، تخيُّل الإحساس بحركة الفرشاة الدّائرة فوق لثتي وأسناني يجعلني أهمّ بالقيام، لكن جسدي مثل حجر، أعضائي تحوّلت إلى أكياس مملوءة بالرّمل، لا أستطيع رفعها أو تحريكها من موضعها، أهمُّ برفع يدي اليمنى على عيني فأجدها ثقيلة، فأكتفي بمدِّها إلى سروالي ولمس عضوي المنتصب، أتحسّسه وأنا أتذكّر ابتسامة ميشيل وهي خارجة من الحمّام تقول إنّها تمنّت لو أنّها كانت رجلاً كي تقف وتبول في حوض غسل الوجه مثلما أفعل:

أكره صوت تبوّلي لأنّه عال، صوت سقوط دفقة البول على الماء المتكوِّم في الأسفل يجعلني أصحو من سُكري وأنتبه إلى أنّكَ في جلستك هذه خارج الحمَّام تسمع هذا الصّوت فأغتاظ أكثر، أنت محظوظ أنّك رجل.

أضحك:

– أنا أيضاً أحسدك على جنونك.

– ميرسي، نبيذ؟

– من فضلك، هممم، جميلة اليوم.

– أعرف، ها، احك.

– عن ماذا؟

– أي شيء.

– لا شيء!

ونصمت.

- مساج؟
مستعدّة؟
- تعالى، اشتريت زيت مساج بالأمس، سيعجبك.

أخلع الـ T-shirt الخفيف وأنام على بطني فوق فراشها الصّغير، منتظراً أوّل قطرات باردة من الزّيت الثّقيل الذي بدا في القنّينة برتقاليّاً، تركب فوق مؤخرتي مفتوحة السّاقين ويبدأ كفّاها في دعك ظهري وعمودي الفقريّ، أتأوّه من ضغط كفّيها عميقاً، تبدأ أصابعها الضّغط بخفّة لتزداد قوّة هنا أو هناك، تأوُّهاتي تقود يدها إلى مواضع الألم، ويدها تقود تأوُّهاتي إلى الانفلات:

- هنا، نعم..
كتفك محطّمة!
- بالضّبط.

تعدل من وضع مؤخّرتها فوق حزام بنطالي الچينز:

- دعني أزيل البنطال.

أنقلب على ظهري وأنا أتناول سيجارة جديدة وأشعلها، تفتح إبزيم حزامي بأصابع تعرف ماذا تفعل وتشدّ بنطالي ثم سروالي الدّاخلي:

هكذا أفضل.

أضع السّيجارة في المنفضة جوار السّرير وأنقلب من جديد على بطني، أغمض عينيّ وأنا أرهف حواسّي لحركة أصابعها المدرَّبة على كتفيّ وعمودي الفقريّ، ميشيل تعرف كيف تصل إلى مواضع الألم، تعرف بحسّها أكثر من خبرتها بالمساج، أسمعها تتنهَّد وهي تريح يديها قليلاً بسحب بعض أنفاس من سيجارتي التي تركتها في المنفضة:

– كأسك فارغة.

–

أصبُّ لك.

.Ok

تقفز من فوقي على أرضيّة الغرفة ذاهبة إلى الثّلاجة الصّغيرة في جهة اليسار، أرقب ردفيها المرفوعين وأنا راقد على بطني، فأرى بلوزتها وقد استكانت من الخلف بين ردفيها، بعد خطوتين تمدّ يدها اليمنى وتسحب البلوزة وهي تنحني على الثّلاجة:

– أكاد أشعر بعينيك..

–

– مشكلتي أنّني أعرفك.

– ردفاكِ دافئان، مسكينة بلوزتك، ستحترق يوماً.

– .Fuck you

* * *

"أملك أربعة أشياء تملكني؛ روحي وقلبي وعقلي.. وعضواً غريباً بين فخذيّ"

فلسفة ميشيل حين تبدأ في الشّعور بخفّة الحشيش تتسرّب إلى دمها كانت تسحرني، فابتسم صامتاً مغمضاً عينيَّ وأنا أستلذّ بدفء ردفيها السّاكنين عاريين تحت رحمة يدي اليمنى، وهي تجلس حواري على أرضية الغرفة.

– تنقع همومك؟!

وقبل أن أستوعب السّؤال تكون بخطوات قصيرة في الحمّام المفتوح بابه على الصالون، تنحني وهي تفتح صنبور حوض الاستحمام وتسدّ فتحة تسريب المياه، تضع تحت مياه الصّنبور التي تندفع بقوّة مزيجاً من الزّيوت العطريّة المساعدة على الاسترخاء ومسحوق استحمام يصنع رغوة ورديّة، سريان الماء السّاخن فوق هذه المساحيق والزّيوت كان يشيع في الشقّة الصّغيرة إحساسا مخدِّرا بالدّفء والحميميّة، فأبدأ في التّكاسل أكثر، وأشعر بأن أعضائي صارت مخدَّرة ولا أستطيع الوقوف، رغم رغبتي الحارقة في التبوّل بعد كؤوس البيرة التي تجرّعتها، أرقبها تتحرّك يميناً ويساراً، تحضر مناشف حمّام جديدة، وتضيء شموعاً عطريّة توزّعها في أرجاء الحمّام والصّالون، وهي تطفئ أنوار المكان الكهربائيّة، حالة العتمة التي تسود المكان وهي تتحدّ مع سخونة المياه المندفعة في حوض الاستحمام، كانت تردّني إلى طفولتي حين كانت تحمّمنا أمّي واحداً بعد الآخر في طشت الاستحمام الدّافئ في ليالي الشّتاء الباردة،

فأبدأ في العودة إلى الوراء وتخايلني رؤى ومشاهدات أستعيدها من البعيد ليد أمّي وهي تتحرّك على جسدي بليفة الاستحمام القاسية، وهي ترفع يدها عالياً بالكوب المملوء بالماء السّاخن الذي سحبته من صفيحة مياه تغلي فوق وابور الجاز، لتدلقه فوق رأسي فيزيل رغوات الصّابون عن جسدي، وأرى صدري الصّغير الضّامر يلمع من أثر المياه، وتملأ أنفي رائحة الصّابون المعطّر، فأشعر وهي تنشّف أعضائي برغبة حارقة في ارتداء ملابسي بسرعة، كي أدخل تحت غطاء سريري، وأنام ملتذّاً بحالة الدّفء النّظيف التي أشعر بها بعد كلّ مرّة تحمّمنا فيها.

– هالووو، هل نمت؟ حوض الاستحمام ينتظرك.

أرمي رأسي إلى الوراء وأنا أجاهد في فتح عينيَّ، محاولاً تناسي انتصابي الحادّ الذي يشتدُّ، ليس من أثر التّهيج، بقدر ما هي محاولة لا إرادية من جسدي لنسيان رغبته الممضّة في التبوُّل:

هل من الممكن أن تساعديني في إفراغه قبل أن أبلّل نفسي؟!

تضحك وهي تجذب يدي لتساعدني على النّهوض، بعد لحظات أكون عارياً أمام حوض غسيل الوجه المجاور لحوض الاستحمام، والذي امتلأ إلى نصفه بماء ساخن تغطّيه رغوات ورديّة، وتنبعث منه روائح مدوّخة لمزيج الزّيوت العطريّة، كانت ميشيل خلفي تسند ظهري بيدها اليمنى وتمسك باليسرى عضوي، وهي توجّهه إلى فوّهة حوض غسيل الوجه:

– أسرع قبل أن تبرد الحمم المعطَّرة.

كنت في هذه اللحظات أحاول القبض على لذَّة سريان البول بعد احتقان زاده كسلي، تلك اللذّة الآسرة التي تضربني بمتعة مختلفة، لذّة أشعر معها كأنَّني أتخفَّف من كيس مملوء كان على وشك الانفجار داخلي، ألتفت إليها بعد انتهائي فأجدها تعرَّت تماماً، تدفعني إلى حوض الاستحمام وهي تحذِّرني مثل أمٍّ:

حاذر أن تنزلق قدمك فتكسر عنقك، لا أريد جثَّة في بيتي، على الأقلّ الليلة.

رفعت قدمي اليسرى وتحسَّست سخونة الماء، الدّفء الذي وصلني خدَّرني أكثر، وجعلني أسارع بالجلوس في حوض الاستحمام مغطِّياً عُريي كلَّه تحت رغوات الماء السّاخن، ظلَّت ميشيل تسندني حتى اطمأنَّت إلى جلوسي، ثم خرجت إلى الصّالون وعادت وبين يديها طاولة قصيرة، عليها مطفأة سجائر فارغة وعلبة مارلبورو بيضاء وعدد من سجائر الماريجوانا الملفوفة:

– وهكذا.. نكون في الجنَّة.

* * *

اقتسمنا البذور في شقَّة ميشيل، كلٌّ أخذ تسعا منها، نسخت هي تعليمات زراعتها بسرعة على ورقة في دفتر صغير سحبته من حقيبة يدها، وأعطتني الكيس الورقي بما تبقَّى فيه من بذور، وهي توصيني باتباع التّعليمات حرفيّاً:

أيّ تهاون سيضيع منَّا الكثير، نريد حصاداً ناجحاً.

لكنَّنا في نهايات يناير، كيف سنزرع البذور في الشّتاء؟

وما الفرق، في النّهاية سنزرعها في شققنا الدّافئة.

إذن ليبدأ كلٌّ منَّا في زراعة بذرة واحدة، ثمّ نرى.

معك حق، لنبدأ ببذرة واحدة.

ثماني عشرة بذرة، جرَّبناها على مدار ثلاثة أشهر كاملة، وبالرّغم من الرّعاية والحرص الفائقين اللذين تعاملنا بهما مع كلّ نبتة يظهر برعمها مخضرَّاً، إلا أنَّها سرعان ما كانت تذبل وهي لم تتخطّ في طولها السّنتيمترات الخمسة، بذرة وراء بذرة، ويوماً وراء يوم، والمحصِّلة كانت نبتة واحدة نجحت في الصّمود في شقَّتي الصّغيرة، كنَّا في أواخر شهر أبريل حين زرعت البذرة الأخيرة من بذوري التِّسع، وهي الوحيدة التي صمدت وعاشت:

أخبرتكِ، كان يجب أن ننتظر حتى نزرعها في الصّيف.

باولا أيضاً لم تنتظر، فاجأتها البذرة رغماً عنها، وأفسدت حياتها.

وما دخل باولا بما أقول الآن؟!

- لا عليك، كان يجب أن ننتظر حتى يأتي الصيف.

* * *

السَّاق

القطار السّريع كان اختياري للذّهاب إلى بون الألمانية لأربعة أيام متواصلة، المرّة الأولى التي أزور فيها ألمانيا، جالس في مقعد وثير بحقيبتين صغيرتين، فكرة أن آخذ معي مؤونة صغيرة من الحشيش أو الماريجوانا لم تكن مطروحة بالمرّة، خفت من كلب بوليسيّ يتشمَّمنني في إحدى المحطّات، أو رجل شرطة يرتاب في سمرتي يفتِّشني أو يفتِّش حقائبي، كان عليَّ أن آخذ قطاراً من بروكسل لأتّجه إلى كولونيا، ومن هناك أستبدل القطار بآخر يوصّلني إلى بون، على مشارف كولونيا شاهدت ما كنت قد رأيته من قبل على مواقع البورنو؛ شبّان وفتيات يمارسون الجنس في الحدائق الكبيرة المخصّصة للتنزّه أو الغابات، كان القطار يعبر المنطقة بطيئاً كأنَّه أراد لركّابه إلقاء نظرة ولو سريعة عمّا يحدث في الخارج، وسط الأشجار التي بدأت أوراقها تتساقط بفعل الخريف، كنَّا في نهايات شهر أكتوبر وقد بدأت الأشجار تتعرَّى وتسقط أوراقها صفراء وبُنيّة في مزيج غريب من الألوان والانعكاسات، كان المطر يهطل في دفقات تذهب وتعود، وهبطت درجات الحرارة في الخارج حتى وصلت إلى الثّلاث درجات، معلنة عن بدء قدوم شتاء قارس، بعد أربعة أيام قضيتها بين مدن بون وآخن وكولونيا، اتخذّت طريق عودتي بالقطار، عاكساً طريق ذهابي هذه المرّة؛ بون فكولونيا فبروكسل، في القطار

الألمانيّ من بون إلى كولونيا كنت واقفاً حاملاً حقيبة على الظهر فيما ترتاح أخرى بين قدميّ، كانت المقاعد خلفي وأمامي ممتلئة بالمسافرين الذين تتداخل أصواتهم في مزيج عجيب من اللغات، ألمانية وإنجليزية وإيطالية وفرنسية وهولندية وأسبانية، وهرباً من هذا الخليط العجيب ألقيت عينيَّ خارج النّافذة الزّجاجية أتأمّل الطبيعة والأشجار والغابات في هذه الظّهيرة الرّمادية من نهايات أكتوبر، حتى صدم عيني المشهد الأوّل؛ فتاة شقراء لم أتبيّن ملامحها جيداً استندت بكلتا يديها على جذع شجرة ضخمة، أنزلت بنطالها الجينز وسروالها الدّاخلي حتى منتصفي فخذيها المفتوحين، فيما أمسكها شاب خلفها من خاصرتيها وهو يحرّك جذعه بحركة رتيبة خلف مؤخّرتها، فتحت عينيّ عن آخرهما محاولاً تكذيب ما رأيت؛ هكذا؟ في هذا البرد؟ والعراء؟ وفي مكان مفتوح وعام يستطيع الآخرون رؤيتهم فيه بسهولة؟ لم يطل تعجّبي، فما هي إلا لحظات على اختفاء مشهد الفتاة والفتى حتى وجدت ثنائياً آخر يمارس الجنون ذاته، كانت الفتاة هذه المرّة راكعة على العشب وأوراق الأشجار، والفتى يقيم جسده فوق ركبتيه ويتحرّك خلفها، ومن ورائهما رأيت درّاجتين هوائيّتين ألقيتا بإهمال.

ما إن ملأت عينيّ بمشهد الثّنائي الثّاني حتى بدأت الثّنائيّات تتوالى، أدرت عينيّ في الوجوه التي تقف جواري، والتي تنظر مثلي عبر نوافذ القطار، فلم أر نأمة اشمئزاز واحدة، كأنَّ تعوُّد العيون على ما رأيت جعل الأمر عادياً أو معروفاً، وبالتّالي انمحى تأثيره، كان الأمر وكأنّ هذه الحديقة الكبيرة المخصّصة للتنزّه معروف عن روادها

من الطّلبة والمراهقين هذه السّلوكيات، فيرتادونها كي يصلوا إلى حدودها مع شريط القطار لممارسة الجنس في الطّبيعة، افترضت أنّهم طلبة لا يملكون غير مساكنهم الجامعيّة، أو غرفهم الضيّقة التي يتشاركونها في الكثير من الأحيان مع آخرين، ومن ثمّ يتغلّبون على مشكلة عدم توافر أماكن مريحة لممارسة الجنس مع صديقاتهم، باللجوء إلى الطّبيعة والأماكن المفتوحة والمتنزّهات والغابات.

أعجبتني فكرة ممارسة الجنس تحت السّماء المفتوحة والهواء الطّلق والمطر المنهمر في زخّات لا تتوقّف، الحكاية كلّها في رأيي تملك سحراً آخر غير ممارسة الجنس بين أربعة جدران، في هذه اللحظة تحديداً تذكّرتكِ، تمنّيت لو حقّقنا حلمكِ هذا يوماً ما، أن نتعرّى لنمارس جنوننا هكذا في العراء، مؤكّد ستكون متعتنا مضاعفة، شيء سحريّ وغالٍ وصعب المنال، نسرقه هكذا تحت أعين عابرين طارئين، نفترض إمكانية عبورهم في أيّة لحظة.

لم أكن أسمع أصواتاً تصدر عن الشبّان والفتيات الذين رأيتهم خارج القطار، لكنّني رأيت ملامح الوجوه بسرعة، تلك التي غيّبتها النّشوة مرّتين، مرّة بسبب نشوة الجنس، ومرّة ثانية بسبب سرقة هذه النّشوة في العراء، ابتسمت وأنا أستعيد المرّة الأولى التي ضربتني فيها المتعة مزلزلة كياني كلّه، وأنا أكاد أُفلت لُعاب نشوتي حين شعرت بالمنيّ البكر يغرق سروالي الدّاخلي، كان ذلك في امتحان آخر العام وأنا في السّنة الثّانية الإعدادية، كنت في الرّابعة عشر من عمري، وكان الامتحان طويلاً وصعباً، وحين بدأت الدّقائق الأخيرة من

الوقت تنقضي، أرعبني صوت المراقب الرّيفي وهو يقول: "ناقص عشر دقايق"!

شعوري بأنَّ الوقت بدأ ينفلت وأنا بعد لم أبدأ في الإجابة على ثلاثة أسئلة كاملة أصابني بالرّعب، ضممت ساقيَّ بقوّة وأنا أشعر بانتصابي يكبر وينتفخ تحت بنطالي من تأثير اللحظة المثيرة، حاولت التّركيز في قراءة الأسئلة بهدوء وكتابة إجاباتي عليها بسرعة، كانت يدي الممسكة بالقلم ترتعش لكنَّها تخطّ الحروف بشكل متماسك، وما هي إلا لحظات حتى سمعت خطوات المراقب تقترب منّي وهو يسحب أوراق إجابات التّلاميذ أمامي واحدة تلو الأخرى، تسارعت يدي في الكتابة أكثر فأكثر وعصرتْ ساقيَّ انتصابي بقوّة، وحين رأيت يد المراقب تمتدُّ إلى ورقة إجاباتي يريد نزعها، شعرت بالزّلزلة الرّبانية تضربني في العمق، رفعت يدي عن الورقة هاوياً برأسي على طاولة الكتابة، ملتذّاً بالدفق السّحري للمنيّ وهو يُقذف في دفقات متتابعة في سروالي الدّاخلي، كان الشّعور سحريّاً ولا يوصف، تماسكت أكثر ورأسي يرقد فوق الطّاولة محاولاً السّيطرة على لُعاب متعتي، خائفاً من أن تصدر عن شفتيّ شهقة تلذّذ فينتبه الآخرون لما حلَّ بي، وحين رفعت رأسي عن الطّاولة وجدت المراقب ينظر لي وهو يبتسم ابتسامة ساخرة، كأنَّه يقول لي: أفهم جيداً ما أصابك!

كنت أظنّ أنّ ما أصابني سرٌّ لم يشاركني فيه أحد، حتى اكتشفت أنّني لست وحدي من حظي بهذه الزلزلة الإلهيّة، بعدما

تعوّدت رؤية البقع التي تكبر أو تصغر، تبدو واضحة على سروايل التّلاميذ والطّلبة الخارجين من لجان الامتحانات في المدارس الإعداديّة والثّانويّة، وهم متّجهون في جحافل ومجموعات، تظلّلها غيمة ضخمة من هرمونات الذّكورة، إلى مدارس البنات المجاورة.

* * *

الورقة البيضاء في رقدتها مستسلمة أمام قلم مشهر..

تشبيه جنسي صارخ ومبتذل، لو سمعتني إحدى المتشدّدات في حركات الفيمينيزم المريضة الآن لأكلتني أكلاً، لكنّها حقيقة، يدي ممسكة بالقلم أمام ورقة دفتري البيضاء دون أن تقدم على خطّ حرف واحد، أدخّن وأشرب البيرة وأنصت لموسيقى هادئة تأتيني من نافذة جاري، وتضطرب بداخلي موجات متتالية من المشاعر والأحاسيس والانفعالات، دون أن أستطيع أن أكتب شيئاً، بدأت أرسم، أنقش، أشخبط، وأجرح الورقة بخطوط ثقيلة تمزّق الورق الرقيق في مرورها البطيء المضغوط عليه، أنتشي لهذا الصّوت المميّز لتمزّق الورقة، يفرحني لأنّني بعد كلّ هذا الفشل في كتابة شيء، استطعت أن أفعل شيئاً يغيّر من شكل الصّفحة البيضاء.

أهدأ، وأعود إلى رسم طيور تحلّق في البعيد وأشجار باسقة وعيون، فكرت في أنّ حياتي كانت ستتغيّر لو أنّني استجبت لأحلام مراهقتي في أن أترك للنّاس أثراً قبل أن أموت، أثراً لا تعوقه اختلاف اللغات، ومن ثمّ لا يشتبه على أحد، لم يكن أمامي سوى الموسيقى أو الرسم، واكتشفت أنّني في داخلي أصنع موسيقاي الخاصّة، تلك التي لن أستطيع أبداً أن أخطّها على نوتة ما، لأنّني أسمعها وأنصت لها، لكنّني لن أستطيع أن أترجمها في علامات يفهمها الآخرون، واكتشفت أنّ الرّسم لن ينقل ما أراه في مخيّلتي وهذياناتي من صور عديدة، لن أنجح أبداً في نقلها

بين حدود إطار ما، ما دفعني إلى أن أستسلم لفكرة أن أعيش هكذا، أبخل بما في داخلي على العالم، لأنّه لن يفهمني، وأنا لن أفهمه.

* * *

حاولت كثيراً فهم العلاقة بين إحساس الوقت الذي ينقضي تحت تأثير هدف معين يجب إنجازه ودرجة بلوغ الأورجازم، أو لنقل العلائق بين قوّة الأورجازم وإحساس المرء بالإثارة من عامل آخر خارجيّ، ففي حالة شباب وفتيات الجامعة الذين اضطرّتهم الظّروف المعيشيّة إلى ممارسة الجنس في الغابات والحدائق العامّة، ثمَّة نشوة مضاعفة يشعرون بها أثناء ممارستهم هذا الفعل تحت أعين النّاس، نشوة سرقة لحظات ممنوعة في الهواء الطّلق والأماكن المفتوحة، نشوة الجنس في حدّ ذاتها تتضاعف لمجرَّد أنّ هناك عيوناً أخرى ربَّما تراك وترى ما تفعل، في حالة القذف التي أصابتني في لجنة الامتحان كان هناك عامل عين المراقب الرّيفي، مضافاً إليه عامل الوقت الذي بدأ يتسرّب من بين يديَّ قبل انتهائي من كتابة إجاباتي على كامل الأسئلة.

تذكرين حين كنَّا نسير في إحدى غابات ريغا؟ كنَّا شربنا الكثير من البيرة المثلّجة والفودكا الروسيّة، وكان الليل بدأ يرمي برماديّته على الأشجار من حولنا، ساعتها أخبرتكِ أنّ علينا الإسراع لنعود إلى الفندق، وكنت تتباطئين بصورة أثارت انزعاجي وقلقي، لذلك صرخت بكِ أكثر من مرَّة طالباً منكِ الإسراع، كنتُ خائفاً ومرتعباً من أن يخرج علينا أحد السّكارى أو الشّحاذين ويقتلنا بسكينه دون أن يدري بنا أحد، وبالرّغم من هذا الرّعب الذي تملّكني، ضبطت نفسي متلبِّساً باشتهائك والرّغبة في مضاجعتك، هنا والآن، وسط هذه الغابة متراميّة الأطراف، كان انتصابي بدأ يتقلقل بالفعل تحت بنطالي، معلناً عن رغبته في تحقيق هذه الرّغبة المجنونة، حينها

وحدتكِ تطلبين الانتظار قليلاً حتى تبولين، الفكرة ذاتها زادتني توتّراً، وبدأت أتخيلكِ تجلسين القرفصاء وأنا أرقبك من بين الأشجار، وألمح خيط البول السّاخن يخرج في دفقة قوية مصعّداً بخار سخونته ليختلط بتراب الأرض وأوراق الأشجار المتساقطة:

أوك، ولكن بسرعة، علينا العودة.

انسحبتُ عدّة خطوات إلى الوراء واتخذت سمت الحارس، متلفّتاً يميناً ويساراً لأطمئن إلى أنّ لا أحد في الجوار ليراكِ، كان المطر يهطل بغزارة ويدي تبحث في جيوب معطفي الشّتويّ عن علبة سجائري، تراجعتِ أنتِ أيضاً إلى الوراء مختبأة بين الأشجار دون أن تهتمي بمداراة شعركِ المبلّل بالمطر تحت غطاء الرأس الخاص بمعطفكِ المطريّ القصير، أنزلتِ بنطالكِ بسرعة وأنت تجلسين القرفصاء، لم أكن حينها لا خلفك ولا أمامك، كنت أرى جانبك الأيمن، تأمّلت قوس ردفيكِ ورأيت نتفاً من عضوكِ قبل أن تصل إلى أذنيّ دفقة البول كاملة، حينها تهاوي انتصابي دفعة واحدة، دون أن أفهم السّبب.

* * *

تحت سقف مقهانا العتيق المطلّ على ميدان رمبراندت في قلب أمستردام، تتجمَّع الآن عشرات الجنسيَّات واللغات واللهجات، جاؤوا من مدن بعيدة ومن بلدان نائية، ليتوحَّدوا تحت راية نبتة المخدَر السّاحرة، تجاوروا جنباً إلى جنب، وكتفاً إلى كتف، في سلام حقيقيّ ونادر، كلٌّ منهم جلس يدخّن ويلفّ سجائره متحدّثاً إلى من في رفقته، نساء ورجال، شبَّان وفتيات، يشربون أكواب قهوتهم أو مشروباتهم الغازيّة، فالمقهى لا يقدِّم المشروبات الكحوليّة ليحدّ من حالات السّقوط والإغماء بين روّاده، كنتِ تقولين إنَّنا حين نكون داخل المقهى، فنحن لا نحتاج لتدخين مخدِّرنا، يكفي أن نجلس ونتنفَّس دخان الآخرين لنشعر بحالة الطّفو، كنتِ تتلذَّذين وأنتِ تغمضين عينيكِ وتبدأين في تشمُّم الأدخنة المتصاعدة حولنا لتعرفي أنواع الماريجوانا وأصناف الحشيش، ثم تلتفتين إلى الجالس عن يميننا:

هذا حشيش كِتامة؟

فيومئ برأسه مبتسماً وهو يرفع سيجارته عالياً.

هذه ماريجوانا محليّة؟

فتبتسم وهي تغمز بعينها لنا.

لم أفهم أبداً هذه الموهبة، كيف كنت قادرة على تحديد أنواع الماريجوانا وأصناف الحشيش وسط كلّ هذا الدّخان والخليط الغريب من الرّوائح والنّكهات، كأنَّك كنت حينها تتحوّلين إلى أنف ضخمة، مزوّدة بقرون استشعار لا ترى.

الدّاخلون إلى المقهى يهرعون من الأمطار الغزيرة، ليتراصّوا تحت المظلّة الأماميّة العريضة المعلّقة فوق الباب، ما يجعل الحارس الضّخم يسدّ فتحة الباب بجسده العريض وهو يفتّش الحقائب، ويلقي بنظرة متفحّصة على هويّات صغار السنّ، ليتأكّد أنّهم تخطّوا السنّ القانونية المسموح لهم فيها بارتياد المكان، فيما يخرج من خلفه رهط من الشّاحبين الذين يسيرون ببطء مخافة السّقوط بأدمغتهم المخدَّرة فوق بلاطات الطّريق.

اشتهيتك البارحة في غرفتي الباردة، تمنّيت لو كنتِ معي، وهو ما أعرف أنّه لن يحدث، أبداً.

* * *

ثمَّة لحظات تمرُّ على الإنسان يكتشف فيها بشكل لا رجعة عنه، أنّه أضاع الكثير من الخبرات من بين يديه، كان من الممكن أن يستفيد منها، أن يتعلّم من خلالها ما لم يتعلّمه من قبل، هذا ما شعرت به ينخر عظام كياني كلّه وأنا واقف في القطار الذّاهب بي إلى كولونيا، بعد مرأى شباب الجامعة الألمان يتعرّون هكذا في الحدائق العامّة والغابات، راودتني مشاعر ندم لأنّني لم أتجرّأ يوماً على ممارسة الجنون ذاته تحت السّماوات المفتوحة، كثيرة جداً هي الأماكن التي جمعتنا، وكان بوسعنا أن نفعل فيها ما نريد بدون أن يحاسبنا أحد، وصلنا سوياً إلى آخر مدن العالم، ولم نفكر أن نصل بمشاعرنا وجنوننا إلى أقصى الحوافّ، الحوافّ الخطرة، الزّلقة، والتي من الممكن أن نضيع بعدها تماماً، أكتشف الآن أن مشهد تبوّلكِ في الغابة كان الثّمرة الأولى من أشجار هذه الحوافّ الخطرة، الثّمرة التي لم أمدَّ يدي وأقطفها كاملة، كم من الثّمار تدلّتْ فوق رؤوسنا ولم نمدَّ إليها يداً جريئة، أو حتى نلمسها لمساً حقيقيّاً، ولو.. بفعل الفضول، صعدنا جبالاً شاهقة الارتفاع في أسبانيا، وقفنا أمام فوّهات براكين تخرج الحمم الكبريتيّة في نيكاراجوا، دخلنا بارات لمهاجرين معدمين في ميلان، تُهنا في صحراء المغرب الكبيرة، ضعنا في أزقّة تركيا التي تتداخل في بعضها البعض مثل متاهة لا مخرج منها، ولم نفكّر مرَّة واحدة في تحرير هذا الجنّيّ الكامن فينا، الجنّيّ الذي يطلّ برأسه من داخلنا في لحظات سكرنا وخدرنا وغفلتنا، ونحن نتبادل سيجارة الحشيش الأخيرة، غارقين في الضّحك، من خلف أسوار عزلتنا المعتمة عن العالم.

من الآن، سأترك جنوني على ما كان عليه، حين كنت قرداً يقفز من غصن إلى غصن في غابات الله، فالجنّي يطلب الخروج ويأمرني أن أجنّ، ليكن، سأُخرج بدائيتي من مكامنها العميقة في الذّاكرة، وأطلقها دفعة واحدة، سأحرّر غرائزي البكر من قيودها، وأجذبكِ تحت الشّموس السّاطعة والأقمار المكتملة والنّجوم المضيئة، لأعريكِ، وأتّحد بكِ والطّبيعة في الآن ذاته، لأقنص هذه المتع المضاعفة والأبديّة، وليكن بعدها ما يكون.

* * *

أعرف ميشيل جيداً حين يحيّرها الاختيار بين شيئين، تقطّب جبينها الجميل وتتحدّد خطوطه بشكل واضح في تعرّجات ملتوية، وهي تزمّ شفتيها وتنظر في الفراغ إلى نقطة في البعيد، رفعتْ إصبعها السّبابة وخبطت به مرات على شفتها السّفلى:

نايت كلوب.. ديسكوتيك.. أو استربتيز، لك أن تختار.

جال بخاطري أنّ الخيارات الثّلاثة هي في الأصل واحد، وهو ما جعل تفكيري في الاختيار بينها ينحصر في رغبتي المكتومة في الضّحك، هممت بأنّ أشيح بنظري إلى النّافذة المفتوحة على قمر مكتمل وأتجاهل ما قالته لكنّها أردفت:

تعرف، أنا من سيختار نيابة عنك هذه المرّة، لنذهب الليلة إلى ديسكوتيك، وفي المرّة القادمة تختار أنتَ ما تشاء.

لماذا تشغلين نفسك؟ الأمر سيّان بالنّسبة لي، لا فرق بين الثّلاثة أصلاً.

ضحكت كأنّها استمعت إلى تعليق طفل ساذج أمام معجزة ما:

غبيّ، وستبقى غبياً.

فتحتُ زجاجة بيرة جديدة وعدت إلى مقعدي أنظر إليها وهي تفتح خزانة ملابسها:

هل سنخرج؟

طبعاً، هيا ارتد ملابسك.

الوقت متأخّر، لنؤجّلها إلى الغد.

- أيّ غد، السّاعة الآن الحادية عشرة والنّصف، هيا!

ومتى سنعود لو خرجنا الآن؟ الوقت متأخّر!
إذن انتظر حتى ينشئوا لك ديسكوتيك يفتح أبوابه في الصّباح للأطفال أمثالك.
وضربتني على كتفي بقبضة مضمومة.

عرفت أنّه لا فائدة من مجادلتها، كنت جالساً على مقعد جلديّ جوار سريرها، مسترخيا وأُمنّي نفسي بليلة كسولة ندخّن ونشرب وينتهي بنا الحال إلى مضاجعة طويلة، قبل أن يهدّنا التّعب ويحملنا على النّوم العميق، وضعت زجاجة البيرة التي فرغت للتوّ على أرضيّة الغرفة جوار مقعدي، وسحبت بنطال الچينز من فوق السّرير وارتديته على عجل:
أنا جاهز.
تناولتْ لفّة من المفاتيح من حقيبة يدها وقذفتها في الهواء:
أغلق الباب.

* * *

ولدتُ صباحاً، مع الإشراقة الأولى للشّمس على العالم في يوم خريفيّ ما، في غرفة صغيرة بعليّة بيت أمستراميّ كما أخبرتني باولا، كانت لحظة الولادة برفقة اثنتين من صديقاتها اللواتي يعملن معها في مزارع العنب، كنَّ يُجلبن من قرى بعيدة في ضواحي العاصمة ويعشن في غرف خشبيّة على حوافّ الحقول، ولا يعدن إلى غرفهنَّ أو بيوتهنَّ إلا في عطلة الأسبوع، مساء أيام الجمع يجمعن قروشهن القليلة التي نالوها، ويعدن إلى أمستردام ليشترين مؤونتهنَّ من المخدّرات والكحول والأطعمة، ليبدأن، وحيدات أو في صحبة آخرين أو أخريات، في الشّرب والتّدخين حتى يغبن عن الوعي، غارقات وغارقين في بحور اللذّة والجنس العفويّ المجنون.

هكذا ولدتُ، بصحبة امرأتين وأمّي، قالت إنَّها لم تتألّم ولم تعان، بعد ساعتين فقط من بدء آلام المخاض كنت أنا نائمة على صدرها، قطعة لحم حمراء مبلّلة لم تزل بسوائل المشيمة، فيما الصّديقتان تتخبّطان في الغرفة الصغيرة تبحثان عن مقصٍّ لتقطعا حبل السّرة الذي يربطني بباولا، وباولا راقدة مفتوحة الفخذين تبحث بأصابعها عن سيجارة ماريجوانا لتدخّنها، وتنسى آلام فرجها الذي لفظني للتوّ.

بحسبة بسيطة أنا نتاج مباشر لتدخين نبتة الماريجوانا، منذ النّطفة الأولى وحتى لحظة ظهوري عارية فوق نهديّ باولا العامرين، النّطفة التي غرسها أحد المخدَّرين في رحمها حين كانت هي الأخرى، قبل تسعة أشهر كاملة، مخدَّرة وضائعة في غياهب حالة

الطّفو، لم تخبرني باولا حتى الآن كم عدد الرّجال الذين ضاجعوها في هذه الليلة التي حبلت بي فيها، وربّما هي نفسها لا تعرف عددهم أو لا تدرك في أيّ ليلة حبلت بي، لكن بقليل من التّفكير يمكنني القول إنّ نُطفتي وضعت في رحم باولا أثناء إحدى عطلاتها الأسبوعية، فلم يكن من الممكن أن تحبل بي خلال أيام عملها الشّاق في مزارع العنب، وسط كلّ هذا الجمع من الفتيات، إذن، وبحسبة أخرى، وُضعت نُطفتي في أحد أيام الجمع أو الأسبات أو الآحاد، الأيام الثّلاثة المقدّسة في الدّيانات السّماوية الثّلاث، زُرعت بذرتي الأولى في واحد من أيام راحة الرّب، في غفلة منه وهو في عطلته الأسبوعية، ربّما لهذا السّبب تحديداً خرجت إلى العالم وأنا أحمل شكّاً عميقاً في وجوده، كانت باولا تكدح مثل عبدة خمسة أيام في الأسبوع وترتاح يومين، فيما الرّب يستريح ثلاثة أيام، ويتكاسل عن مهامه في الأيام الأربعة الأخرى.

الصّورة الأقدم التي أحتفظ بها لباولا، صارت باهتة ومهترئة الأطراف، حاولت قبل عدّة سنوات أن أرمّمها لدى أحد المصوّرين المحترفين دون جدوى، لم أظهر فيها، وإن كانت بطن باولا المنتفخة تفضح وجودي، كانت ترتدي زيّاً واسعاً وطويلاً، وتقف أمام جمع من الفتيات اللواتي يبتسمن بغنج واضح للعدسة، باولا وحدها كانت ترفع يدها عالياً في الهواء بملامح جادّة، كأنّها كانت تأمر المصوّر بشيء ما، لم تستطع الكاميرا الاحتفاظ به.

إن أردتَ الصّدق؛ انحزتُ أكثر إلى الحشيش هرباً من جذوري التي تعود إلى الماريجوانا، كأنّني كنت أهرب من الجوهر الحقيقيّ لوجودي، المنبع الأصليّ الذي تشكلتُ منه، وصنع منّي ما أنا عليه الآن، أدرك تماماً ضعفي أمام الماريجوانا، وكراهيتي لها، كأنّني أكرهها لمجرّد أنّها كانت السّبب في وجودي، وجودي الذي لم أعد أعوّل عليه، إلا في اللحظات التي يغيّبني الحشيش فيها عن إدراكه وتلمّس حضوره الماديّ الثقيل.

* * *

قبل أن نستقلّ درّاجتينا، كانت ميشيل قد انتهت في المسافة من باب شقّتها ومدخل البناية التي تسكن بها، من لفّ سيجارتين من الماريجوانا، أعطتني واحدة قبل أن تنحني لتفتح قفل درّاجتها:

تنفّس بعمق قبل أن تدخل الجنّة.

أخذت اللفافة القصيرة ذات الشّكل الهرميّ وأشعلتها:

كوني أمامي كي أتأمّل ارتجاج ردفيكِ.

لن تحتاج ردفيَّ، أنت ذاهب إلى حوريّات الديسكوتيك، وبما أنّك لم تذهب من قبل إلى مثل هذه الأماكن، سأعذر جهلك حتى ترى.

ولو، أحبّ ردفيكِ.

ميرسي.. هيا، تأمَّلهما جيداً.

ركبت درّاجتها وهي ترفع تنُّورتها القصيرة وسبقتني، تبعتها بدرّاجتي وأنا أدخّن سيجارة الماريجوانا، كان علينا أن نعبر جسراً طويلاً يمرُّ في قلب المدينة النّائمة لنخرج بعدها إلى الطّرف الشّرقيّ حيث الديسكوتيك، رياح باردة ضربت وجهي وعنقي المكشوف ونحن نعبر نهراً فتطاير شعري وضرب عينيّ، تذكّرت أنّ عليَّ أن أذهب إلى الحلاق في عطلة الأسبوع، وإلا سأصبح واحداً من أصدقاء ميشيل ذوي الشّعور واللحى التي لم تشذّب ولم تحلق لشهور عديدة، عبرنا بعد الجسر شارعاً تجارياً مزدحماً بمحالّ الملابس والأحذية من أشهر الماركات العالميّة، لم يكن في الشّارع الطّويل كلّه سوى مجموعة من العابرين في هذه السّاعة المتأخّرة، كانت جميع

المحالّ مغلقة منذ السّادسة مساءً، باستثناء مقهى هنا أو مطعم هناك:

كان علينا أن نأكل شيئاً، أشعر بالجوع قبل حتى أن نصل الديسكوتيك.

معك حقّ، أنا أيضاً جوعانة، لنأكل شيئاً هنا، وإلا ستسقط منّي أو يُغمى عليك بين ساقيّ إحداهنّ.

على باب الديسكوتيك كان هناك الكثير من المنتظرين أغلبهم من الشّباب والمراهقين الذين تخطّوا للتوّ عامهم الثّامن عشر، أغلقنا أقفال درّاجتينا في المكان المخصّص لها قبالة باب الديسكوتيك وانضممنا إلى طابور الواقفين، حالت حقيبة ميشيل القماشيّة ذات الزّهور الملوّنة المعلّقة على كتفها الأيسر، دون أن تلفّ ذراعها على خصري ونحن متجاوران في الطّابور، فنقلتها بحركة سريعة إلى كتفها الأيمن، ودسّت يدها في حقيبتها:

سيجارة قبل أن ندخل؟

تناولت السّيجارة وأنا أبتسم لفكرة أن تدخّن الماريجوانا علانية هكذا في الشّارع، ووسط كلّ هؤلاء الذين يحيطون بك، دون أن يرمقك أحدهم بنظرة استنكار أو قرف، عاودتني المشاعر المتحرّرة التي كنت أشعر بها في كلّ زيارة لي مع ميشيل إلى أحد مقاهي أمستردام المتخصّصة في بيع أنواع الماريجوانا والحشيش، حيث يمتلئ المكان بمدخّنين أتوا من جميع أنحاء أوروبا والعالم، ليشعروا بهذه الحالة الآسرة من التّواطؤ الجميل في تدخين هذه النّبتة السّحرية، مع

قرب انتهاء سيجارتي كنت بدأت أشعر بسريان حالة الخدر في أطرافي، وبدأ عقلي يصفو وترقّ مياهه، فأرى ما يكمن تحتها من أفكار وهواجس وأحاسيس وهذيانات، شددت نفساً أخيراً وعميقاً من السّيجارة التي انتهت، قبل أن ألقيها تحت حذائي وأنا أستلذّ برأس ميشيل الذي استقر هادئاً على كتفي اليمنى، قرّبت أنفي من رأسها وشممت رائحة الشّامبو المعطّر تفوح من شعرها اللامع، فقبّلتها سريعاً وأنا أحيط خصرها الرّقيق بذراعي:

كنت أفضّل لو بقينا في البيت وحدنا.

شششش... بعد قليل ستتمنّى لو لم تنطق هذه الجملة.

وطبعتْ قبلة سريعة على أنفي.

* * *

ما تربَّينا عليه من قيم الحبّ والغرام، كان بشكل ما، إحدى الخدع التي ضحكوا علينا بها، ما معنى الحبّ؟ سؤال الأبديّة المزمن، الذي كُتبتْ لأجل الإجابة عليه ملايين من أطنان الكتب والقصائد والمسرحيّات، وكتب الفلاسفة والشّعراء والصّوفيين، وأُلِّفت له وعنه ومن أجله ملايين السّيمفونيات والمقطوعات الموسيقيّة، وصُنعت لأجله ملايين الأفلام والمسلسلات والبرامج الغبية، لم يزل هو السّؤال السّاذج ذاته منذ ملايين السّنين، ولا يزال هناك من يحاولون في كلّ مرّة الإجابة عليه.

كففت عن الأسئلة منذ زمن، ولم أعد أنتظر إجابة من أحد، أحاول أن أعيش دون نتوءات مدبّبة تنتشر على جلدي الخارجيّ اسمها الأسئلة، تمنعني عن احتضان المحيطين بي، عن التقرّب منهم، وإليهم، كي أحاول رؤيتهم عن قرب، أحاول أن أعيش يومي بلا ماض، يؤرّقني، ويقلق منامي، بلا مستقبل أنشغل به عن يومي، ويسرق منّي متعة اللحظة التي تمرّ بي، وهي تلوِّح مودِّعة، قبل أن تختفي إلى الأبد.

الحياة.. الحياة.. الحياة..

الحياة هنا، والآن.. في هذه اللحظة بالذّات.. لا قبل.. ولا بعد.. وأنا أستمتع بهذا السّكون والسّلام ينتشران في روحي، فألقي برأسي إلى الخلف، منتشياً.. وناظراً في الفراغ.

* * *

العتمة التي غلّفت عينيّ في الممرّ الضّيق، كانت كفيلة بفصلي تماماً عمّا تركته خلفي، امتدّ الممرّ لأكثر من ثلاثين متراً، كانت تكسو حائطيه قطيفة أرجوانيّة فضحتها لمبات صغيرة على جانبيّ الأرضيّة المكسوّة بقطيفة زرقاء غامقة، إحساسي بقدميّ وهما تغوصان في الجسد الليّن للسجّادة أشعرني بخفّة وتحرّر غريبين من ثقل العالم المزدحم في الخارج، تمسّكت أكثر بخصر ميشيل التي تخطو هادئة جواري، وتحسّست تكوّر ردفها الملفوف، كأنّني أستمدّ منه الشّجاعة قبل دخولي إلى عالم جديد لم أره من قبل، كانت أصابع كفّ ميشيل اليمنى قد انسلّت سريعة تحت سترتي الخفيفة، ومسّت جلد ظهري فبعثت فيّ شعوراً بالدّفء الآسر والمدوّخ، وبدا صوت الموسيقى المكتوم الذي يصلنا من نهاية الممرّ كأنّه آتٍ من مئات الغرف المغلقة، وكلّ خطوة نخطوها تقرّبنا من زخم بشريّ يتحرّك مثل قطيع من الأفيال الهاربة على مبعدة آلاف الأميال.

في نهاية الممرّ الضّيق واجهتنا ستارة لم أتبيّن قطيفتها السّوداء إلا حين أزاحتها ميشيل بحركة سريعة، كمن تعوّد على وجودها في هذا المكان لسنين طويلة، فاجأتني أنوار خافتة ملوّنة وانفتح المشهد على طاولات عديدة تغرق في عتمة خفيفة، يتوسّطها عديد من الأجساد التي التفت في حلقات صغيرة، تتراقص على وقع موسيقى DJ يعتلي مسرحاً صغيراً أقصى اليمين، كانت الفتيات يتراقصن مع أصدقائهنّ في حركات سريعة ومتناغمة، شممت رائحة الماريجوانا والحشيش تمتزج وتختلط بروائح العديد من العطور ومزيلات العرق وأدخنة السّجائر مختلفة الأنواع والنّكهات، كان ثمّة فتيان وفتيات

يعبرون بين الحاضرين حاملين على صوان تتوازن فوق كفوفهم كؤوساً مختلفة من أنواع الخمور، مرتدين جميعاً زيّاً موحّداً من الأسود والأبيض، الفتيان ارتدوا سراويل كلاسيكيّة سوداء وقمصاناً بيضاء، فيما ارتدت الفتيات بلوزات بيضاء تكشف عن نهودهنّ وتنّورات سوداء قصيرة، واشتركوا جميعهم في رباط عنق ساخر باللون الورديّ على شكل القطّ الشّهير رمز البلاي بوي.

صارت يد ميشيل التي تجذبني وسط كلّ هؤلاء هي بُوصلتي، وأنا أبحث عن موضع لقدميّ وسط الزّحام، فيما تحتكُّ بي نهود دافئة تلمع تحت حبّات عرق شفّافة، وأذرع معروقة ومؤخّرات رجراجة وشعور محلولة، دفعتني ميشيل بحركة سريعة إلى طاولة مرتفعة مملوءة عن آخرها بأكواب خمر فارغة أو نصف ممتلئة، اتّخذت مكاني واقفاً وتحرّكت يدي دون إرادة منّي تبحث عن سجائري، أخرجت سيجارة وهممت بإشعالها لأجد يد ميشيل تمتدّ وتخطفها من بين شفتيّ:

لا لا لا، ستجعلني أشكّ في ذكائك، في هذا المكان ثمّة أنواع أخرى للتّدخين.

أخرجت علبتها الحديديّة من حقيبة يدها، وضعتها على الطّاولة وفتحت غطائها بحرص:

- سألفُّ لك ترياقاً سحريّاً.

وبيد مدرّبة، لفّت ميشيل عشر سجائر في خليط عجيب من الماريجوانا والحشيش المغربيّ الأسود والتّبغ، كانت أصابعها البيضاء النّحيلة تزن أوراق نبتة الماريجوانا المفتّتة وتخلطها بمقدار من التّبغ، ثمّ تضيف قطعة الحشيش الخامّ التي سخّنتها فوق ورقة فضّية بقدّاحتها بعد أن فركتها جيداً وتأكّدت أن فُتاتها موزّع بالعدل على أجزاء السّيجارة، أشعلتْ سيجارة وأعطتني واحدة:

البقيّة لسهرتنا، اطلب حين تحتاج.

* * *

كانت شقّة ميشيل مستطيلاً لا تزيد مساحته عن ٤٥ متراً مربّعاً، مقسّمة إلى الوسط الذي تشغله الكنبة الجلديّة الخضراء وطاولة صغيرة أمامها، واليسار حيث غرفة النّوم بسريرها المتوسّط وخزانة الملابس المصنوعة من الصّاج المقوّى، إنتاج المصانع الألمانية في سبعينيّات القرن الماضي، والتي عثرت عليها ميشيل ذات ظهيرة في سوق لبيع الأثاث المستعمل، واليمين حيث المطبخ الصّغير والحمّام.

في محاولتها لإشعار من يدخلون بيتها، بأنّه ليس صغيراً كما يبدو لأعينهم، ملأت ميشيل الحوائط بالعديد من الملصقات التي تعود في أغلبها إلى فرق غناء الروك آند رول، ونجوم ظاهرة الهيبيز في فترة السّبعينيّات، فكانت عين الجالس على الكنبة الجلديّة التي تتوسّط الشقّة، بإمكانها أن تتنقّل بسهولة بين صور البيتلز وبوب ديلان وجون لينون وبوب مارلي، والتي تفصل بينها ملصقات مرحلة Flower power الفاقعة بزهورها المتعدّدة الألوان والتي تشعر من يراها بالبهجة، كانت كلّ هذه الملصقات تتوزّع بشكل عفويّ وغير مرتّب على الجدار، صانعة دائرة مرتبكة حول ملصق ضخم اهترأت حوافّه، يُظهر أوّل رسم صمّم ليكون رمزاً دعائياً لما عرف حينها بملصق فتاة الماريجوانا، ليحتلّ واجهة جميع مقاهي الماريجوانا في أمستردام سنة ١٩٧٦، كان تأمّل الملصق والغرق في رسم الفتاة، أحد الأشياء التي استسلم لها على الدّوام في شقّة ميشيل ونحن ندخّن، كنت أتوقّف مليّاً أمام هذا السّحر الغامض الذي كان يسيطر عليّ، وأنا أتأمّل تأرجح ملامح الفتاة وجسدها البكر بين

كفّتي الطّفولة والأنوثة، كأنّها حاضت للتوّ للمرّة الأولى، كأنّها الآن بالذّات، في اللحظة التي رسمها من رسمها، كانت المرأة بداخلها تشبّ برأسها لتنظر إلى الخارج من تحت ملاءة البراءة الطّفولية البيضاء، تلك التي ما تزال تغطّي جسمها الغضّ، في يدها اليسرى سيجارة ماريجوانا، وتنثني ساقها اليسرى حتى تقترب من نهديها الصّغيرين، لتزيح تنُّورتها القصيرة كاشفة عن فخذين بريئين يتبدّى عليهما نوَّار الأنوثة يعلن عن نفسه في خجل، فيما ساقها اليمنى تسترخي على المقعد، ويستند كوع ذراعها الأيمن على ركبتها اليسرى، لترتاح كفّ يدها اليمنى على شعرها الأحمر النّاعم وهي تنظر إلى البعيد.

لم تفهم ميشيل سبب انبهاري الدّائم بملصق فتاة الماريجوانا، كانت ترى أنّه ملصق عادي، محمّل بحمولات السّبعينيّات السّياسيّة والاجتماعيّة:

لا أعرف، يشعرني ببراءة مصطنعة لا أتحمّلها، أنت معجب به لأنّه يردّكَ إلى مرحلة الطفّولة، ليس أكثر.

لم أكن أعارض، كنت أعرف أنّني إن عارضت فسوف أُدخل نفسي إلى عشّ من الدّبابير التي تنتظر ضحية لالتهامها، لكنّني كثيراً ما ربطت في ذهني بين شخصية ميشيل المتقلّبة وبين ملصق فتاة الماريجوانا، ذلك الذي لم ينحز إلى كفّة على حساب أخرى، حرص على أن يكون أمام العين التي تتأمّله، مجرّد رسم لفتاة تقف على الحدّ الفاصل بين الطّفولة والأنوثة.

على هذا الحدّ الرّفيع، كأنّه شفرة سكّين، كنت أنظر أنا الآخر إلى ميشيل، كأنّها رسم صُمّم في فترة لم أعشها، وحين كبرت، وجدتّه بالمصادفة في كومة أوراق قديمة وبالية، ففرحت به، وظللت أتأمّله — ماضغاً لعاب نشوتي كما أتأمّل ملصق فتاة الماريجوانا!

* * *

النّبتة التي وضعتها في أبعد نقطة عن النّافذة الوحيدة في شقّتي الصّغيرة، أصبحت هي محور اهتمامنا المشترك، وشكّلت هوساً جديداً لدى ميشيل، التي صارت تذهب خصيصاً إلى محالّ العناية بالنّباتات، فتشتري لها الأسمدة وسوائل خاصّة لتنظيف أوراقها من الأتربة والوقاية من الحشرات أو الدّيدان، وكنت أنا الآخر لا أوفّر جهداً في رعايتها والعناية بها، فأسأل ذوي الخبرة من الأصدقاء والمعارف عن كلّ ما من شأنه أن يجعلها نبتة قوية، ليزيد حجمها وتكون عزاء لنا عن البذور السّبعة عشر الأخرى التي خسرناها، مع الوقت صار اهتمام ميشيل بالنّبتة لا يتحمّل وجودها في شقّتي البعيدة، فقرّرنا أن ننقلها إلى شقّة ميشيل كي تكون تحت عينها، نقلناها ليلاً فوق درّاجتي في صندوق بلاستيكيّ ذي غطاء مخرّم لكي يسمح بدخول الهواء إليها، كانت ميشيل قد أعدّت مكاناً لها بالقرب من نافذة مربّعة في مطبخها المطلّ على حديقة خلفيّة صغيرة تابعة للمبنى الذي تسكن فيه، وضعتْ إصيص النّبتة على مقعد منخفض، وتحت المقعد رصتْ بكثير من الحذر أربع علب بلاستيكية رشّاشة، تحوي مبيدات وسوائل لرعايتها وحمايتها من الحشرات.

كان أوّل شيء أفعله حين أدخل شقّتها، هو أن أتوجّه مباشرة إلى الرّكن الصّغير في مطبخها لأطمئن على النّبتة التي ارتفعت حتى وصل طولها نصف متر تقريباً، كانت السّاق نحيفة لكنّها رغم هذا مملوءة بالأوراق اليانعة، وجدت مروحة كهربائيّة صغيرة موجّهة إلى

النّبتة تغمرها بنسمات الهواء، وقبل أن أستفسر وصلني صوت ميشيل من خلفي:

عثرت على قناة أمريكيّة على يوتيوب تقدّم العديد من النّصائح لزراعة ورعاية نبتات الماريجوانا، ومنها أن توضع مروحة صغيرة لتجديد الهواء باستمرار حول شجرتنا الصّغيرة.

جعلتها شجرة بعد عدّة أسابيع؟!

تفاءل، فلن يكلّفك التّفاؤل شيئاً.

ليكن، شجرة، المهم أن تعيش.

* * *

أنا الآن في الشّارع الذي ولدتِ فيه، أجلس إلى مائدة خارج مقهى يحتلّ الجهة اليمنى من النّاصية، أملك مؤونتي من السّجائر التي سهرت البارحة في غرفة الفندق الرّخيص وأنا ألفُّها بحرص تعلّمته منكِ، لم تخبريني برقم البيت الذي شهد مولدكِ، وإلا لكنت الآن أمامه، قبل أن أنتقي مكاني في المقهى تجوّلت في الشّارع ذهاباً وإياباً، كنت كمن يبحث عن شيء يعرف أنّه موجود لكنّه لن يجده، توقّفت أمام بيوت صغيرة، رافعاً نظري إلى الأعلى متأمّلاً الشّبابيك العريضة بزجاجها المزدوج، وأبوابها الخشبية النّظيفة، رأيتك طفلة صغيرة تخرجين من أحد هذه الأبواب، ممسكة بيد باولا، وضحكتك الطّفولية تتدحرج فوق إسفلت الشّارع، فيما باولا تصرخ فيكِ لتحذّرك من الدرّاجات التي تمرق ذات اليمين وذات اليسار.

الشّارع صغير، بأحد الأحياء الفقيرة على حوافّ أمستردام، يحدّه من الأمام جسر حديديّ تعبره الدرّاجات والسّيارات متباطئة، وجسر حديديّ آخر يحدّه من الخلف، فيما وضعت في بدايته ونهايته عوارض حديديّة لمنع السّيارات من الدّخول إليه، كنت أرقب العابرين وراكبي الدرّاجات من جلستي خارج المقهى، متأمّلاً الوجوه التي تعبرني في صباح هذا الأحد الرّماديّ، محاولاً أن أرسم صوراً لحيوات هذه الأرواح التي تمرق سريعة، قبل أن تختفي في الزّحام.

للمفارقة، الشّارع الذي ولدتِ فيه لا يضمّ سوى بيوت معدودات، ثمانية بيوت في جهته اليسرى، وعشرة بيوت في جهته اليمنى، كأنّك تزيدين حيرتي حين تخبرينني أنّ واحداً من هذه البيوت

الثّمانية عشر شهد مولدكِ، تنفّستِ فيه أوّل أنفاسك على هذه الأرض، فتحت فيه عينيكِ للمرّة الأولى، وبحثت بشفتيك فيه على أوّل نقطة من حليب الحياة، وجدتني أقف لدقائق في عبوري المتردّد للشّارع أمام كلّ بيت، كأنّني أراك في لحظاتك الأولى، منحت لكلّ بيت في وقفتي دقائق أستعيدك فيها وأنت طفلة صغيرة، بشعرك الأشقر الذي يتطاير بفعل الهواء، متسائلاً أين كنت حينها طفلاً، وما الذي جمعنا سوياً ذات يوم؟!

* * *

الجذر

وحدي، أجلس الآن في مقهانا العتيق في أمستردام، حين وصلت في الصّباح كانت الشّوارع مزيّنة بالأعلام البرتقاليّة، والسّائرون في الطّرقات رجالاً ونساءً يرتدون اللون البرتقاليّ، عرفت أن ثمّة مباراة أخرى لكرة القدم، الهولنديّون شعب مرح، لكنّهم مؤكّد أخطأوا حين اختاروا ألوان علم بلدهم، فما علاقة الألوان الثّلاثة: الأحمر القاتم وصولاً إلى اللون القرمزيّ، الأبيض النّاصع، الأزرق القاتم وصولاً إلى لون الكوبلت، ببرتقاليّتهم التي تظهر مع كلّ مباراة لكرة القدم، أو مع الأخضر بدرجاته المختلفة الذي يرمز إلى نبتة الماريجوانا؟

اشتريت جراماتي الخمسة من صنف Orange تضامناً مع الشّوارع البرتقاليّة في الخارج، وجلست إلى أوّل طاولة بعد باب الدّخول مباشرة، ليتسنّى لي التّدخين وأنا أرقب المارة في الشّارع، تعوّدنا أن نجلس سوياً في آخر طاولة بالمقهى، في أقصى ركن معتم، لكن وحدي، بدونكِ، أبقى بعيداً عن الأركان المعتمة، كأنّني أوهم نفسي بأنّني لم أجِ المقهى الذي طالما زرناه سوياً دون أن تكوني معي، أمستردام مدينة باردة، أكره أن أكون فيها بدونكِ.

طلبت فنجاناً من القهوة السّوداء المركّزة، ورشفت أولى رشفاتها المرّة مشعلاً چوان الماريجوانا الطّويل الذي ابتعته مع الجرامات الخمسة، غمزت لي البائعة الشّقراء ذات الوشم الياباني على ساعدها الأيمن وهي ترفعه أمام عينها:

لا تخرج من المقهى قبل أن تدخّنه، غير مسموح بأكثر من خمس جرامات في حوزتك كما تعلم.

أومأت لها مبتسماً، لم يكن في رأسي حينها سوى الموسيقى الهادئة التي تنساب من أركان المقهى، والإضاءة الفسفوريّة التي توزّعت في عتمة الدّاخل، كان السّقف مزيّناً بأجهزة دائرية لشفط الدّخان الأزرق وتجديد هواء المكان، فيما توزّعت لمبات صغيرة حمراء وخضراء على جنبات وزوايا السّقف، والزّبائن يدخلون جماعات وفرادى، يشترون مخدّراتهم من ركن جوار البار، ثم يتوزّعون على الأركان باحثين عن طاولات فارغة دون جدوى، كان حارس المقهى الأصلع مرتدياً بزّة رسميّة سوداء، ويسدّ باب الدّخول بجسده الضّخم حين يقترب منه الزّبائن الجدد، يفتّش حقائبهم بحرص وهو يداعبهم بإنجليزيّته المتقنة:

غير مسموح بأكثر من خمس قنابل فقط.

عمل الحارس لم يكن يقتصر فقط على تفتيش حقائب الدّاخلين إلى المقهى، بل كان عليه في أحيان كثيرة تنظيف المكان ممّن أصيبوا بالإغماء أو الدّوار نتيجة كمّيات الدّخان في المقهى، قبل قليل هرع إلى الدّاخل وخرج بعد لحظات وهو يسند فتاة بدينة

من كتفيها، أجلسها على مقعد خارج المقهى المطلّ على الميدان المزدحم، وركع أمامها على ركبتيه وهو يطلب منها أن تتنفّس الهواء بعمق، وحين اطمأنّ إلى أنّها بدأت تستعيد وعيها، تركها ودخل من جديد إلى المقهى ليظهر بعد فترة ومعه شاب شاحب اللون، أجلسه على مقعد مجاور لمقعد الفتاة، وبدأ يعالج رأسه التي تنزف جراء السّقوط.

لا أعرف ماذا سأفعل بقيّة ليلتي هنا، أفكر في العودة بآخر قطار لأنام في بيتي، لكنّني بدأت أشعر بخدر الماريجوانا يضرب أوصالي، وبدأت تمطر بقوّة في الخارج، ما دفع المارين إلى فتح مظلّاتهم وإحكام معاطفهم وهم يهرولون للاحتماء من الأمطار تحت مظلّات المحلّات والحوانيت السياحية المجاورة، كانت صيحات البرتقاليّين المتجمّعين في المقاهي المطلّة على الميدان تتعالى هادرة مع كلّ فرصة ضائعة أمام الشّباك، والموسيقى في داخل المقهى تتغنّى بسحر الشّعور بالطّفو فوق سحب الدّخان.

لو كنتِ معي الآن، لكنّا تجوّلنا في الشّوارع ونحن ندخّن سجائرنا ملتصقين تحت مظلّة واحدة، أو ربّما كنت سأنتشي فرحاً، فأبدأ في الغناء بصوتي الأجشَ لأزعج المارين جوارنا، ولكنتِ ضربتني وأنت تكتمين ضحكتكِ، طالبة منّي أن أسكت وأخفّف من جنوني.

لو كنتِ معي الآن، ما كنتُ لأكتب كلّ ما سبق.

* * *

كدت أموت مرّتين، المرّة الأولى كانت قبل سنوات في إحدى شقق حيّ الهرم بالقاهرة، كنّا في الأيّام الأولى من شهر رمضان الذي صادف حينها صيفاً قاهريّاً قاتلاً، أنزل ضيفاً على أحد أصدقائي، حين فاجأتني صديقتي في الصّباح وضغطت الجرس، فخرجت من الفراش متثاقلاً وفتحت لها الباب، عانقتني سريعاً وصرخت بي متلهّفة:

– لسه نايم، صحصح، ورانا شغل.

أشرت لها أن تنتظر حتى أتحمّم، ونزلت تحت الدُّش أزيل آثار النّعاس التي تسيطر على مخّي إلى الدّرجة التي لم أكن بقادر معها على فتح عينيّ، كنت قد شربت كثيراً بالأمس، وخلطّت كالعادة بين ستيلّا والبراندي والنّبيذ، وكلّها من أردأ الأنواع، فقمت بصداع يشوّش عليَّ التركيز في أي شيء، ويبدو أنّ وجودي قد طال تحت الدُّش حتى وجدتها تفتح باب الحمام:

إيه يا عم، أنت نمت ولا إيه؟

مش عارف.

وقفت تنظر لي ثم دخلت وأغلقت الباب وراءها وجلست على أرضية الحمَّام:

معايا بانجو، تشرب؟

أجبتها من تحت المياه:

لسه ما فطرتش.

– وماله، هاتفتح نفسك، وبعدين ننزل نفطر سوا.

خرجت من تحت الدُّش ولففت المنشفة العريضة على وسطي دون أن أجفّف جسمي، وخرجنا سوياً إلى الصالون، جلستْ على الكرسيّ المقابل وهي تخرج كيساً بلاستيكيّاً من حقيبة يدها، وأخذت تفرك النّبتة الخضراء الجافّة بأصابع مدرّبة فوق طاولة صغيرة تتوسّط الغرفة:

عمري ما شربت بانجو.

همست كأنّها تغري طفلاً:

هايعجبك.

وأخرجت سيجارتين من علبتها الـ "سوبر كليوباترا" وكسرتهما في طبق ذهبت سريعاً لإحضاره من المطبخ، وبدأت في مزج نبتة البانجو الجافّة التي تحوّلت إلى فتات بتبغ السّيجارتين، جلست أتأمّل أصابعها وأنا أشعر بجوع شديد:

مش أحسن ناكل الأول؟

اصبر، بعد أول سيجارة هاتاكل زي الحصان.

وسحبت علبة ورق بفرة من جيب بنطالها الجينز وبدأت في لفّ السجائر.

مددت يدي إلى علبة سجائرها المرميّة على الطّاولة وسحبت سيجارة متوجّهاً إلى المطبخ:

- تشربي شاي؟

ما يضرّش.

فتحت الصّنبور فوق فوّهة وعاء الألومنيوم وأشعلت البوتاجاز الكهربائيّ، وعدت إلى مقعدي أمامها:

يعني إيه عمرك ما شربت بانجو؟ ده أنت خيخة قوي.

تجاهلتها وأنا أنظر إلى النّافذة المفتوحة على شارع طويل يعجّ بالسّائرين:

عرفتي إزاي إني هنا؟

صاحبك، قابلته امبارح في البار وعرفت منه انك غطسان في شقته بقالك أسبوع.

أطفأت السّيجارة وقمت لأحضر الشّاي، شعرت بها آتية خلفي:

سيبني أنا أعمل الشاي، وخد انت ولّع دي.

تناولت السّيجارة الملفوفة من يدها ووضعتها بين شفتيّ، فيما صبّت هي الشّاي وعدنا إلى المقعدين في الصّالون، أشعلت السّيجارة وأنا أنظر إليها بريبة:

على مسئوليتك، لو مُتّ.. هافشخك.

ضحكت:

وهو المطلوب.

* * *

نائم على أحلامه التي راحت، غافٍ مثل ملاك وحيد، منزوٍ في عزلته، صامت صمت الوحشة والقهر، مضبوط على عقارب دورته، في الحياة التي قدّرتْ له كان هناك، لكنّه علق في الهامش، الجميل الغافي بين فخذيّ يملك أسراره، يملك وجوده في مخبئه مثل كنز رصين، جوهرة عالقة في ظلمة طيّات روحي، حين يضيئه ليل الرّغبة، يتورّم مثل أفعى، ويصير له عواء وأنين، أمدّ له يدي، يدي التي ترعاه، يدي التي تحنو عليه، ويدي التي تخرجه عن صمته، هو هنا في صمته محتفظاً بألقه، لا يتلفه وقت، ولا تتلفه حاجة.

يدي وحدها القادرة على ترطيبه، هو النّبع الأوّل، والمصبّ الأخير، اسمه المغارة، لأنّ في جوفه فطرة الوحوش وعتمة الليالي، حادّ مثل شفرة حلاقة، وناعم كلمسة منسيّة، فيه نهر الحياة ومجرى الأفاعي، في طفولته كان ناعماً أملس، لا يعرف من معاني وجوده سوى القليل، في وظائفه البيولوجية يكون مستتبّاً على أمنه، بالفطرة يحجب نوره، يصير سرّاً من أسرار الجسد، محكوماً بالظّلمة، في أوّل رحلة نهرية، ينزلق الثّوب وينكشف بياضه على ماء النّهر، سرت رعشات أولى لم تسعفها طفولة أن تترجم لذّتها، علقت في الذّاكرة على تكرارها مثل مجرى نيران تسري في الجسد، ثمن تلك الحادثة، علق أيضاً في الذّاكرة، اليد الخشنة التي امتدّت إليه، كانت قاسية ومرعبة، أظافر خدشت بياضه، صرت أبكي، أمّي التي حملتني بعيداً، أشفقت عليّ وعانقتني، من يومها صارت تلك اليد تأتي في الليل فأخاف، أخاف أن تخدشني ثانية، صارت تأتيني في المنام، وصارت أمّي - كي لا يطال جوهرتي أحد - تحكم ملابسي عليّ.

جوهرتي التي صارت يدي تفهمها، وأصابعي تعرف مفاتيحها، جوهرة تغفو كلّ النّهار، ولما يئنّ النّهار تحت ظلمة الليل، تصير تحكي... وتنادي.

أفهم حاجاتي، وأفهم قمعي، أرضى بروحي اللاهثة نحو لذّتها، لذّة كاملة حين أصير بمواجهة جسدي، جسدي الذي يصير عالمين، عالمي الذي يحكمه رأسي، وعالمي الذي يحكمه مكمن غامض للذّتي، عالمان متجاوران، متناغمان، وإن بدت سطوة الرّأس قاهرة، يخلي الليل مساحة لذلك العالم الغامض الشّفيف، فأصير أتألّم، ويصير جسدي يشتدّ ويضطرب لرغبته، ويصير مائي بين أصابعي، أفتحه، وأمرّر إصبعي على مهل، ثم أمرّر إصبعاً ثانياً، وعلى.. مهل، أذوق ذلك الطّعم، ثم أردّه إلى مكمنه، أتركه يستريح، ينزلق ببطء داخل العتمة، جسدي كلّه مرتهن لهذه الحركة، إصبع يغيب، إصبع يظهر، إصبع جاف، إصبع مبلّل، لساني يريد، وشفتي عطشى، نَفَسي يتسارع، وعيناي تغيبان، وملمس ناعم لمكمن بضّ، له الليل بطوله، لا يحبّ النّهار، ولا يحبّ النّور، هناك في العتمة تنفخ فيه الحياة أسرارها، أسرار لا يفشيها وجه، ولا جسد، ولا صوت، يصير الملكة الشّبقة، الملكة الهائجة، يصير مركز العالم، وسرّ الظلام، أطبق عليه فخذيّ فيثور، أفرج عنه ببطء حتى يتنفّس قليلاً، أباعدهما، ليتفتّح، ويكشف عن أوراقه الورديّة، وبُتلاّته، وميراثه من النّدى، أتركه يلامس الهواء، وينتظر، مثل ملاك، غاف على أحلامه، منزوٍ في عزلته..

إله صغير، يصنع الحكايات..
وينتظر.

* * *

"نصف جمال سيجارة الحشيش.. يكمن في طريقة لفّها"

قالت ميشيل وهي تهمّ بطقسها اليوميّ في إعداد سجائر مؤونتنا من الحشيش والماريجوانا، جلستْ على الأرض وقد تربَّعت مثل هندية ستبدأ شعائر دينيّة في أحد المعابد، أمامها طاولة مربّعة صغيرة، لا ترتفع عن الأرض إلا بثلاثين سنتيمتراً، رُصت فوقها المعدّات والأدوات اللازمة:

علبة من التّبغ الخام ماركة Next الأمريكية تكفي لـ"صنع ٢٧٠ سيجارة عادية" كما تدّعي الشّعارات الإعلانيّة، مقاسات وأنواع مختلفة من ورق البفرة جيّد الصّنع، عبوّة قاربت على الانتهاء من الفلاتر المنفصلة، علبة حديديّة دوّارة ومستديرة لتفتيت الماريجوانا وطحنها، حمل غطاؤها صوراً متعدّدة الألوان لتشي جيفارا، في تقليد سمج لأعمال آندي وارهول الشّهيرة، ولفّة من ورق المائدة الفضيّ تحوي قطعة الحشيش الأفغانيّة، والتي تتعامل معها ميشيل بحرص أرملة بخيلة، إضافة إلى عدّة أكياس صغيرة تحوي كلّ منها نوعاً مختلفاً من الماريجوانا.

كانت ميشيل ترتدي قميص نوم حريريّاً أسود يصل إلى أعلى ركبتيها بقليل، رفعت شعرها إلى أعلى وربطته بقطعة من القماش المطّاط، تتدلى منها ثلاث ريشات ملوّنة تسمّيها ميشيل "ريشات الهنديّ الأحمر"، ورثتها عن باولا التي كانت تعلّقها دائماً في شعرها حين تحضر حفلات موسيقى الهيبيز في السّبعينيات مجرجرة ميشيل

خلفها، ميشيل التي كانت تتربّع أمامي الآن على الأرض يفصل بيننا متر واحد تقريباً، وأنا جالس على كنبة الصّالون الجلديّة، أشرب بيرتي وأتأمّل نهديها المشدودين تحت حرير قميصها الأسود، لاحظت وجود كتابة بالقلم الجافّ على ظهر كفّ يدها اليسرى، طريقتها المعتادة في كتابة المهام التي يجب أن تفعلها في يومها، كانت تدندن على وقع الموسيقى الهادئة التي تكاد تسمع في أرجاء الشقّة الصّغيرة، آتية من جهاز الكمبيوتر المحمول المفتوح أمامها:

سأسافر.

متى؟

لا أعرف، ربّما فجأة.

لا أفهم.

سأسافر كالعادة، وربّما لا أفعل.

عمل؟

ربّما!

* * *

لا ارتجاف، لا تدفّق، لا استفاقة..
رغبتي غافية، مطمئنّة في بيت جسدي، لا تأخذ وضعيّة الانتباه والشّراسة إلا في حالة حبّ، رغم التّمويه الذي قدّمته لي الحياة والأعراف وكلام النّساء عن أجسادهن ورغباتهنّ، لم أشعر أبداً أنّ الطّريق لإيقاظ عضو رغبتي يبدأ من التقاء جسدي بجسد رجل، أيّ رجل، فالطّريق المألوفة للحصول على المتعة خضع عندي لإزاحات كثيرة، لكنّكَ تعرف أنّها إزاحات ابتكرتها الطّبيعة، الطّبيعة ذاتها التي كرّست فكرة محدّدة وطرق مألوفة يستفيق بها عضوك أمام جسد الأنثى.

أنظر؛ كبديهة من بديهيّات الفسيولوچيا: عضوك المشرع أمامي يوقظ رغبتي، هل تفترض أنتَ غير ذلك؟ الممرّ لإيقاظ رغبتي غامض، يبدأ من مكان آخر غير جسدي أو جسدك، يتجاوز ما تفترضه الطّبيعة والأعراف والبديهيّات، الطّريق لإيقاظ عضو رغبتي يبدأ بهدوء وبشكل تدريجيّ من مكان يشبه المكان الذي تأخذني إليه، حين تمرِّر جملة شِعرية، واحدة من تلك الجُمل التي تقول أكثر بقليل من كلمة "أحبّك"، وأقلّ منها في الوقت ذاته، تلك الالتفاتة التي تجعلني أنحاز لأشياء لا أحبّها، مثل التّفكير المنطقيّ طمعاً في احتمالات المحبّة، أنتشي من لحظة كهذه وأشعر أنّي دافئة، رغبتي ليست غريبة لهذه الدّرجة، وعضو رغبتي يرتجف أمام جسد الرّجل، لكنّي، وبالطريقة الغامضة ذاتها، لا أنتبه إلا في حالة حُبّ، ليس جسدك ما يشغلني، لكنّها الكينونة التي يغلّفها هذا الجسد، ليس

عضوك ما أحبّه، بل فكرتك عنه، فكرتك عن جسدي وعن جسدك هي ما توقظني.

ليس أمراً جنسياً ما يوقظ عضو رغبتي ليشتهيك، عضو الرّغبة فينا مجرّد خطّ عرضيّ في اللوحة التي نمثّل أنتَ وأنا جوهرها، عضوك لا يثيرني، أنتَ من يثيرني، الطّريقة التي تغضب بها، الطّريقة التي تفكّر بها والتي أفترض أحياناً أنّي أعرفها، الطّريقة التي تفكّر بها في امرأة سواي، الطّريقة التي تسحب بها نفساً من سيجارتك، حتى الطّريقة التي تفقد فيها اتّزانك، فتبدأ بالهلوسة في حالات سُكرك تشكّل فارقاً، كلّ هذه التّفاصيل التي تمرّ بشكل عابر تخبرني أنّ جسدي يشتاقك، لاحقاً يحضر جسدك عندي، جسدك الذي تشغلني كلّ تفاصيله بالطّريقة التي تكذّب كلّ ما قلته لك، عن أنّي لا أنظر إلى عضوك إلا في دائرة تفاصيلك، إنّني بالطّريقة الغامضة ذاتها، أحبّ عضوك وجسدك، وتنتفض روحي أمامه، بالدّرجة التي تضحى فيها كلّ التّفاصيل أمامي غائمة وضبابيّة.

يمكنك أن تتلهّى بالجنس؟ تجربة الحصول على الرّعشة الدّافئة دون الحاجة إلى جوهرة الرّغبة، تجربة الانحياز لجسدك بحضور الأنثى أو غيابها، تجربة أنانيّة المتعة، التّجربة التي لا يسبقها ارتباك، لا أعيب عليك ذلك، لكنّي لم أجرّب أنانيّة المتعة، اشتهائي أشرق بفعل تجربة أخرى، أحببت ربّما، ارتبكت غالباً فتعرّفت على متعتي، لم أتمكّن أبداً من فهم الجنس في صورته العصريّة، أحاول، لكنّي دون قصد أفهمه على أنّه جزء من معادلة الحبّ، سبباً أو نتيجة،

كنت قد ردّدت كلماتك والتفاتاتك في ذهني مرّة بعد مرّة إلى أن اقتربت من هالتك، اقتربت من صورتك الأخرى، الصّورة الكامنة التي تمنحك نفسك دون خدعة الانعكاس التي أوجدتها المرايا، دون التقاطة الكاميرا.

كلّ اشتهاء أو تدفّق أو ارتجاف يحيط بعضو رغبتي، يتوقّف على قدرة رجل ما على موافقة خيالي، فأنا أشتهي حين تتعالى قدرتي على التخيّل، الأمر الذي يجعل الحدود غامضة، يصعب تحديد بداياتها ونقاط التّحوّل فيها، أحاول مراراً أن أعثر على المعادلة الصّحيحة لتجربتي معك، عبر الاحتمالات والفرضيّات، لكنّني لا أصل إلى صورة واضحة، الغريب أنّي جرّبت معك ما لم أتخيّله من قبل، معك فقط جرّبت لحظة الكسل الكاملة، اللحظة الصّفر، شعرت بخدر لذيذ يلفّ جسدي، شيء يشبه أن تكون أحد النّاجين بعد نهاية العالم، مستلقية في فراشي، غبيّة وسعيدة، أجرّب خيالي وهو يهرب ويعود مرّة بعد مرّة، وأبتسم وأنا ألمحك تعبر أمامي كلّما رفّت رموشي وأنا أغرق في إغفاءة صافية، قبلك لم أمتلك تصوّراً عن أيّ شيء، كلّ فعل كنت أفعله، كنت فقط أفعله لأجل أن أفعله، وكلّ حدث يحدث وحسب، شعري يطول، جسمي يتناسق، تنحفر خطوطه، وتتشكّل انحناءاته، ولا أعرف لماذا، حين وجدتكَ عرفت أنّ الحياة صنعتني فقط لكي أكون لك، وتشكّل جسمي لأجلك، للدّرجة التي صرت أومن فيها بأنّني حيوانك البريّ، وأنتَ اكتشاف قدرتي على القنص.

الآن حين أشتهيك وأستدعي صورة جسدك، أعرف أنّي لم أنظر إلى رجل قبلك، صرت أحبّ سعادتي البلهاء وأنا أتقلّب في فراشي وأفكّر في كونك غير موجود، لابدّ أن تكون لحظات هلوستي فيك وهوسي بك مثمرة على نحوٍ ما، ربّما تكون أنت من إنتاج خيالاتي، صورة خارجة من قاع روحي، تكوينا جديدا للرّجل، كأنّك خُلقت للتوّ، كائناً لا يعرف اللغة، فأمسك بيدك لأعلّمك اللغة: هذا المستدير الملفوف اسمه "نهد"، وهذه الورديّة التي تنتصب وتستدير حين تقترب منها اسمها حلمة"، وهذه المستوية مثل بحيرة رائقة اسمها "بطن"، وهذه بشعيراتها المشذّبة اسمها "عانة"، وهذا الصّغير يسمّونه "بظراً"، لكنّه ليس بظراً، إنّه عشبة صغيرة نمت خلسة بين صخرتين، وهذه ليست "سرّة"، إنّها النّدبة التي خلّفها المقص الصّدئ الذي قطعوا به الحبل الذي يربطني بباولا

اكتشف اليوم مساحة جديدة بين مشاعري وشهوتي، شيء حاضر قبل أن أحبّك، ويحضر الآن وأنا أحبّك، شيء يظلّ يتنامى حتى في اللحظات التي أشتهيك فيها وأهبك نفسي بكامل عريها، شيء لا يمكنني أن أضعه على الكومودينو القريب من سريري مع هاتفي وكتبك، شيء أحبّ أن أضعه في منتصف الدّائرة بين شفتي وشفتك، بين أنا التي تتجاسر.. وأنا التي ترتبك، بين ارتجاف روحي وقامتك الفارعة كلّما دخلتني بهدوء ومحبّة، إنّه خجلي الذي أحبّ أن أضعه في مكانه الصّحيح، لا أستطيع أن أحبّ رجلاً بإمكاني أن أبقي عينيَّ مرفوعتين في حضوره دائماً، أحبّ أن أتخلّى عن نفسي كاملة وأنا بين ذراعيك، لكنّ شيئاً ما سيمنعني عن التخلّي

الكامل عن خجلي، فاشتهائي لك لا يعني أن أتخلّى عنه، الخجل هو المنظور في اللوحة التي نمثّل أنتَ وأنا جوهرها، غيابه يجعلها باهتة، ووجوده يمنح كلّ شيء بُعداً ثالثاً.

كان ثمّة شيء ما يندفع بقوّة في نهديّ، وكأنّ نحّاتاً ما يحكم قبضته عليهما ليعيد تشكيل هيئتهما بصورة جديدة، كنت أشعر بيديه تتحرّكان بهدوء غريب وغامض، فأخاف أن يخطىء أو يفلت جلدي من بين أصابعه فيتمزّق، كان يحرّك يديه بين يوم وآخر بهدوء نادر، إلى الدّرجة التي جعلتني أنتظر أصابعه وأتوقّعها في أيّة لحظة يبدأ فيها عمله مجدّداً، الغريب أنّه كان يغافلني أحياناً فلا أشعر بأصابعه أو بما صنعت يداه، ثمّ ألتفت فجأة في لحظات الاستحمام لأجد أنّه أضاف شيئاً جديداً، شيئا ما لا يمكنني تحديد موضعه أو ماهيّته، لكنّني أشعر أنّه أضافه فأعطى النّتوء الأنثويّ داخلي بُعداً جديداً.

الآن، وأنا أستعيد ذكرى أصابعه على صدري، أدرك أنّه كان ماهراً أكثر مما توقّعت، فعمله الذي ظننت أنّه توقّف عنه بعد سنوات مراهقتي، ظلّ يواصله بهدوء أكثر فيما بعد، أضاف لنهديّ علامات أخرى في سنّ العشرين، وربما أضاف علامات أخرى أجهلها في سنّ الثّلاثين، لكنّني لم أشعر بأصابعه أبداً بعد سنوات مراهقتي، وإن كنت لمست ما أضافه، لا أعرف لماذا كفّ عن ملامستي، يبدو لي أنّه اكتسب خبرة أكثر بعد كلّ هذه السّنوات،

وصار ينجز عمله في سنوات عمري العشرين والثّلاثين بالمهارة التي لا تجعله مضطراً إلى إيلامي.

لم أحبّ كوني امرأة، كنت أنتظر أن تصنع أحلامي شيئاً، فأصحو وقد اختفى النّتوء الخفيف الذي بدا كأنّه سيمزّق قفصي الصّدريّ وهو يتنامى يوماً بعد يوم، وكانت القصص الغريبة والنّادرة التي يتهامس بها النّاس من حولي عن فتيات اكتشفن أنّهنّ أولاد، تغذّي خيالاتي وتمنحني أملاً جديداً ليوم آخر يتغيّر فيه واقعي، كنت مجرد مراهقة مهووسة، تعتقد أن إطباق جفنيها بقوّة على حلم ما، يمكنه أن يغيّر مجرى الحياة أمامها، لم أصبح ولداً، ولم يختف النّتوء في صدري، بل تنامى أكثر وأغلق باب الحلم في وجهي إلى الأبد.

حلمت بذلك كثيراً إلى الدّرجة التي ظننت فيها أنّ خيالاتي هي الواقع، وكوني بنتا هو مجرّد حلم سخيف يتكرّر، أقنعت نفسي كلّما هممت بالنّوم أنّ النّتوء الذي يتنامى في صدري سيختفي حين أستقيظ، كنت ناقمة على أنوثتي، وكنت أصحو كلّ يوم لأتفحّص صدري متمنّية أن ينتهي الحلم.

بمرور الوقت بدأت أحلم مجدّداً، واعتبرت أنّ نتوء صدري ليس دليلاً على أنّي دخلت هذا العالم، لا تزال هناك فرص كثيرة لأكون ولداً، خصوصاً أن نهديّ شبّا صغيرين جداً، وبقيا لسنوات على حالهما حتى ليبدو أنّ نموّهما تعطّل، عرفت أنّ علامة الأنوثة هي الدمّ، كنت أجد الفتيات في المدرسة يلتففن ويتهامسن ويباركن

لبعضهنّ البعض كلّما فاجأ إحداهنّ الدمّ، تأكّد لي حينها أنّ الدمّ هو الدّليل النّهائيّ على تمام واكتمال الأنوثة، هو الختم الأخير على الجسد بوصفه جسداً لأنثى، لم أكد أفرح بطاقة الأمل الأخيرة حتى فاجأني الدمّ، فتحطّمت أحلامي، إلى الدّرجة التي صرت أنظر فيها بحسد إلى البنات الأخريات اللواتي تجاوزن سنّ السّادسة عشرة، دون أن يحظين بهذا الختم الدمويّ الأخير.

* * *

حين فتحت لكَ البابَ كنتَ غارقاً بمياه الأمطار، شعرك الطّويل انسدل على جبينك الشّاحب، ومعطفك لم يكن قادراً على تحمّل زخّات المطر التي أغرقتك وأنتَ تقود درّاجتكَ سبعة كيلومترات عائداً من عملكَ، كنتَ ترتجف، أدخلتكَ وحاولتُ أن أخلع عنك المعطف، هرولتُ إلى الحمّام لأجلب لكَ منشفة، تناولتَها منّي بأصابع مزرقّة واتجهتَ إلى الحمّام، وقفتَ في البانيو بعد أن خلعتَ حذاءكَ الذي يقطر ماءً وبدأت تخلع ملابسكَ وأنتَ ترتجف، شكوتَ لي من كتفيك المحطّمتين، فأخبرتك أن لديّ كريماً خاصاً للمساج وتعب العضلات، غطّيت رأسكَ بالمنشفة وبدأتُ أفركُ شعركَ لأجفّفه، التفتُّ وأدرت مقبض المدفأة حتى آخره، لم تمرّ لحظات حتى بدأتَ تستكين تحت حركة المنشفة التي تفرك جسمكَ وكتفيكَ، والدّفء الذي بدأ يشعّ في الحمّام، انتظم تنفّسكَ قليلاً، وجلستَ القرفصاء في البانيو منحنياً على نفسك، فتحتُ باب الحمّام وهرولتُ سريعاً لأجلب سيجارة ماريجوانا، أشعلتُها أولاً بين شفتيّ قبل أن أدسّها بين شفتيكَ، وقفتَ وعانقتني بقوّة، وحين شعرتُ بجسمكَ فوق نهديّ، ألمت بي رجفة خوفاً عليكَ، سحبتكَ عارياً ملفوفاً في منشفة الحمّام وأرقدتكَ في سريري، لففتكَ في بطّانيتي النّاعمة وأحكمتها حولكَ، كانت سيجارتك لم تزل بين إصبعيكَ، أخذتها منكَ حتى تعتدل في رقدتك وتضبط الوسادة خلف ظهرك، اتجهت بالسّيجارة إلى المطبخ وصببت لك كأس نبيذ أحمر، شكرتني بكلمات مبتورة وأنت تتناول الكأس منّي، ناولتك سيجارتك وأشعلت سيجارة لي، وضعتها في المنفضة بعد نفسٍ

طويل، وخلعتُ ملابسي سريعاً ودخلت جوارك، عانقتك محاولة أن أدفئك، ضممتني إليكَ بقوّة، وتنهّدنا.

بعد لحظات كنت فوقك، جالسة مفتوحة السّاقين فوق ظهرك، أخرجت كريم المساج من درج الكومودينو جوار السّرير، وبدأت أوزّع الكريم على كتفيك وعمودك الفقريّ وأسفل الظّهر، كان معجون الكريم شفّافاً وبلا رائحة، ما إن لامس كتفيك حتى تأوّهت وقلتَ إنّه بارد، بدأت أمسّد الكتفين محاولة أن أحرّك يدي سريعاً كي تشعر بالدّفء، بدأ جسدك يسترخي تحت كفّي، ورأيت ملامحكَ تهدأ، سألتك أن تنهي كأس النّبيذ سريعاً ليشعرك بالدّفء، تجرعته مرّة واحدة وأنت تبتسم لي، تورّد وجهك سريعاً، وحين شعرت بيديك تتحسّسان ردفيّ، أيقنت أنّك الآن أفضل، مازحتني بأنّك لن تستطيع أن تتخلّى عن طريقتي في المساج، فضربت ردفيك العاريين وأنا أقوم عنك لأغسل كفيَّ.

كانت ملابسك ملقاة في قاع البانيو، رتّبتها على الحافّة وفوق المدفأة لتجفّ سريعاً، غسلت يديَّ جيداً بالصّابون، واتجهت للمطبخ وعدت إليك حاملة زجاجة النّبيذ، وضعتها على الأرضية جوار الفراش، ودخلت في حضنك تحت الغطاء.

* * *

امممم، نعم، أريح رأسي هنا..
أتوسّد هذه الكتف، أتلمّس بشفتيّ هذه الشّامة، أقرّب أنفي من خلف أذنك، أتشمّم العطر ذا الشّفرة الحادّة، العطر الذي يشبه سحبة عصا الكمان على الأوتار في مقام الصّبا الحزين، أتحسّس جلدك بلساني، فيصرخ في داخلي أسى ناي موجع ومجروح، أنا الطّفل أعود إلى طفولتي على نهديك، أدسّ ضعفي بين فخذيك لأشعر بالدّفء والأمان، أنا العاري بلا ظلّ إلا يديك تقبضان على كياني كلّه وأنا أمتصّ رحيق الحياة من ريق شفتيك، كنت التهمك، أشربك، أقطّرك قطرة.. قطرة، وأتشرّبك قطرة.. قطرة، ليزيد عطشي، مثل متصوّف يبخل على شفتيه برفاهيّة الارتواء.

ما إن دخلتِ في حضني، حتى اختفى وجع كتفيّ، كان جسمي يلمع من أثر كريم المساج، ويداك تلمعان من أثر الصّابون، جذبت ساقك اليمنى ووضعتها فوق ساقي اليسرى، دفنت رأسي بين نهديك وأنا مغمض العينين، تشمّمت دفئك كما لو كنت أرتدّ إلى مهدي الأوّل، وتلمّست بأطراف أصابعي شفريك عن عمد وأنت تحكّينهما بقوّة في انتصابي، كنت ترتجفين، وكنت أرتجف، رجفة في العمق لا تفضحها البشرة التي تتلامس الآن فتدفئ بعضها بعضاً، تفضحها رجفة الشّفتين حين تلتقيان، رعشة اللسان الدّافئ الرّاغب إلى طعم الرّيق الزّلال، النّبع البكر الذي يسقي شجرة الحياة، الموجب والسّالب في استمراريّة هذا المستنقع الذي نحيا فيه، أجذبك إليّ أكثر، كفّاي فوق ردفيك وأنا أحرّك جذعي بين فخذيك فأتحسّس بللك، السّخونة اللزجة التي تجعلني أعتليك،

متحرّكاً فوقك وبين فخذيك، أشعر بيديك تمسّدان كتفيّ وظهري بتلك اللمسة السّحرية لامرأة بين اليقظة والصّحو، تقف على البرزخ الرّهيف بين الطّفو والإدراك، انتصابي يتحرّك بين شفريك، يحتكّ ببظرك المنتصب، وشفتاي تأكلان شفتيك، لسانك المحموم يلتفّ على لساني المحموم، يمتصّه، يتشرّبه، نتبادل لعبة اللسان، وجذعك يتحرّك تحت جذعي، يحتكّ، يتلمّس، يتحسّس، يستكشف العروق النّافرة، والحشفة المنتفخة، يختبر احتكاك الشّفرين النّاعمين بشعر العانة الخشن، فيما شفتاي تقبضان على حلمتك اليسرى، أبلّلها بريقي وأغمض عينيّ وأنا أغيب عن العالم، مرتدّاً إلى طفولة أضعتها من يدي.

نصف مسطول، نصف منهك، كنت فوقك، أتشهّاك، وأشتهيك، وكنتِ تحتي، مرتخيّة، وذائبة، مددت يدي إلى درج الكومودينو جوار فراشك، تناولت أنبوبة الكريم الذي ترطّبين به شفريك قبل أن ألجك، ناولتك إيّاه، وأعدت يدي إلى الدّرج ذاته وتناولت عازلاً طبياً، فتحت كيسه وغطيت به عضوي وأنا أراك تضعين الكريم المرطّب الشفّاف على عضوك من الخارج، توزّعينه على الشّفرين المحمرّين والبظر المنتصب وحول فتحتك، اقتربت منك، جاثياً على ركبتيّ بين فخذيك، وبدأت أدخله، كنت مسطولاً، وكنت مسطولة، لكن صرختك المفاجئة حينها أيقظتني، أضئتِ نور الغرفة بعدما قفزت من السّرير مثل لبؤة مجروحة وقرّبت يدك اليمنى من أنفك تتشمّمينها:

أي كريم هذا؟ اللعنة، هذا كريم المساج يا غبي!

لم أتفوّه بكلمة..
رأيتك تجرين عارية إلى الحمَّام، تفتحين فوّهة الدُّش وأنت تمسكين بها وتقرّبينها لتغسلي ما بين فخذيك وأنت تصرخين من الألم:
إنّه يحرق، أوففف، اللعنة، يحرق جلدي فعلاً يا غبيّ!

كنتُ فوق السّرير..
منقلباً على ظهري من الضّحك!

* * *

فُتحت أبواب الجنَّة أمام باولا، وجيلها من الهيبيز المولعين بالتّشرّد في الشّوارع وممارسة الحريات على حوافّها القصوى، حين سمحت هولندا في العام ١٩٧٠ بتجارة وبيع المخدّرات الخفيفة في مقاه وأماكن خصّصتها لذلك، لم يكن أحد يتخيّل حينها أن يقدم بلد أوروبيّ على تقنين استخدام الحشيش والماريجوانا، وأنواع أخرى من المخدّرات الخفيفة أمام المستهلكين، وأن تتغيّر النّظرة تجاه مدخّن المخدّرات ومتعاطيها من اعتباره مجرماً إلى اعتباره مريضاً، والفارق كبير إلى حدّ ألا تستوعبه العقول آنذاك، كانت الشّرارة الأولى لهذا التّقنين حين فرّق القانون الهولنديّ بين المخدّرات الخفيفة والمخدّرات الأكثر تدميراً، سامحاً ببيع الأولى (ماريجوانا، حشيش، ويت) في حصص لا تتعدّى الجرامات الخمسة لكلّ شخص، ومنع ومعاقبة المتاجرين في الأصناف الأخرى مثل الكوكايين والأفيون والمورفين:

كان ذلك اعترافاً متأخّراً بجنوننا، نحن الذين كنّا نحيا مثل دود الأرض.

كانت باولا تتنهّد وهي تقول جملتها، ناظرة في البعيد وهي ترمي بالسّيجارة الملفوفة من شرفة إحدى الغرف المستأجرة في ضواحي مدينة ما:

هممم، أفتقد هذه السّنين.

كمتشرّدة لا تعوّل على شيء، قرّرت باولا في عصر أحد أيام صيف ١٩٧٦ أن نرحل إلى أمستردام التي كانت تعتبرها هي وجيلها الجنّة الخضراء آنذاك، أخذتنا الفولكس فاغن من الجنوب البلجيكيّ

إلى أمستردام، عابرين طريق الأوتوستراد بسرعة ١٢ كيلومترا بالسّاعة، كنت في السّادسة تقريباً، أجلس في المقعد الخلفيّ أتفرّج على الحقول الخضراء الواسعة التي تمرق أمام عينيّ، حين انتبهت للمرّة الأولى إلى الفرق بين رائحة دخان الماريجوانا ذي النّكهة الخاصّة، وبين رائحة التّبغ العاديّ، كانت باولا تقود السّيارة وتشعل من حين إلى آخر سيجارة جديدة:

ما هذه الرائحة العذبة، أشمّ رائحة حلوة ماما!

رائحة الحقول حبيبتي، الطّبيعة تضحك لنا.

مع الوقت بدأت أنتبه أكثر فأكثر إلى الرّوائح المتعدّدة لسجائر باولا، والتي لم تكن تتغيّر إلا حين تكون السّيجارة ملفوفة، كنّا نتوقّف من حين إلى آخر على الطّريق لنستريح في مقهى أو مطعم، أو لنبحث عن دورة مياه نقضي بها حاجتنا، وكانت باولا تنتهزها فرصة لتلفّ عدداً من السّجائر الجديدة قبل أن نعود إلى السّيارة ونواصل الرّحلة.

كنت أجلس في الخلف، والدّخان يرتدّ من فم باولا إلى أنفي بفعل نافذة السّيارة المفتوحة، فأتنشّقه ببطء حين تكون رائحته عذبة، وأتأفّف منه حين يكون عادياً..

من يومها، وأنا أكنّ احتراماً كبيراً.. لأنفي.

* * *

ليس هناك أورجازم كامل بين ذراعيّ من تحبّ، حتى الأورجازم يبقى ناقصاً، لا يكتمل إلا وأنت وحدك

تبول!

* * *

وأسأل نفسي أحياناً: وماذا لو لم أكن أكتب؟
الكتابة هي الشّبح الذي زرعته أنتِ بداخلي، هي الحافّة الزّلقة التي دفعتِني إليها دفعاً ذات يوم، وكنت أعرف أنّني لن أنجو من السّقوط من فوقها وإلى الأبد، كنت أكتب في البداية لأهرب من وطأة غيابكِ، وكي أستعيد اللحظات التي مرّت علينا من جديد بألق آخر وسحر مغاير، لم أكن أعرف أنّ للكلمات حين تتراصّ جوار بعضها البعض هذه القداسة التي تكبر بداخلنا يوماً بعد يوم، بدأت أمسك القلم وأخطّ تفاصيلنا، ليس بغرض التّدوين، بل لأراكِ بشكل أفضل، لأضعك في بقعة ضوء أستطيع من خلالها أن أتبيّنك من وراء حجب عتماتكِ الأثيرة، صرت أكتب كالمحموم كي أثبّت صورتكِ المهزوزة الغامضة في داخلي، وكي أبطئ من سرعة جريان الحياة بقربكِ، كنت ألهث لأجمع التّفاصيل التي تغرمين بتضفيرها وتعليقها في ذيل كلّ تصرف من تصرّفاتك، حتى صرت أشبه بالنّحلة التي تجمع قطرات الرّحيق من مئات الورود، لتصنع منها في النّهاية طعماً واحداً، لا يشتبه على أحد.

أنت السّبب في أنّني الآن مدمن على الكتابة، مدمن على اللعب بالكلمات كي أحفر فيها معاني جديدة، وصوراً لم تكن لتخطر على عقل أحد، كنت أظنّ أنّني قادر على الفرار سريعاً من شهوة هذا الفخّ الذي أضع قدميّ فيه كلّ ليلة عن طيب خاطر، قلت سأتعب، سأمّل، وسأهرب منه إلى صرعة أخرى، كعادتي حين أنشغل فجأة بشيء جديد ثم أعفّ عنه بعد أيام، اكتشفت وأنا أحاول أن أكتبك أنّني إنّما كنت أكتب ذاتي، وجدت أنّ روحي

صارت مثل نبتة دبّت فيها الحياة من جديد حين بدأت أسقيها قطرات الكتابة على مهل، ويوماً بعد يوم، صارت لروحي ساق خضراء قوية، وأوراق يانعة، وزهرة جديدة تتفتّح تحت ضوء النّهار وأشعة الشّمس، كنت أحفر مثل مزارع دؤوب في تربتك، أخرج الدّيدان والحشرات الضّارة، لا لكي أتخلّص منها، بل لأتأمّلها، وأدرسها، وأعيدها من جديد إلى أماكنها، بالقرب من الجذر الذي ضربه السّوس والعطن، الجذر الذي أعرف تماماً أنّه فاسد، وأنّه لن يدوم طويلاً، قبل أن تجفّ السّاق، وتذبل الزّهرة.

صارت دفاتري المكوّمة جوار فراشي، هي كنزي الذي أحرص عليه مثلما يحرص أرمل على أولاده الصّغار، من قال إنّني عرفتك؟ من قال إنّني اقتربت يوماً منكِ ولمست روحك؟ من قال إنّني شخص آخر سواكِ، أو أنّك شخص آخر سواي، أشعر أحياناً أن أحدنا اخترع وجود الآخر، ابتكره كي يهرب من عزلته، وبدأ يتعامل على أنّ هذا الآخر هو شخص حقيقيّ في حياته، محاولاً أن يلتمس الدّفء في وجوده، ولو واهماً.

حين كنت أعيد قراءة الصّفحات التي كنت أكتبها في لياليَّ الطّويلة من الوحدة، الصّفحات التي حفرتها كلمة كلمة، كي أتمكّن من رسم صورة لواحدة من حالاتك العديدة، كنت لا أجدك فيها، لا أجد هذه المرأة التي تنتصب أمامي على أصابع قدميها العشر، وهي تمارس سطوتها على معنى الأنوثة، معنى الوجود، معنى أن تكون امرأة بلا جذر تنتمي إليه، حين تبدأ بوادر الطّوفان تحيط بها من كلّ

جانب، كنت لا أجد هذه الرّوح التي هي مزيج غريب من أرواح عدّة، احتلّت هذا الجسد المجنون حتى ضاق بها، وبدأ يظهر كلّ يوم وروح مناقضة لسابقتها تتلبّسه، أنتِ مجمع أرواح يا ميشيل، مستودع منسيّ للخرافات والأساطير والأكاذيب والحكايات التي لم ترو بعد، وأعرف أنّني لا أملك أن أعتصم بشيء وأنا واقف الآن على هذه الحافّة الزّلقة، إلا أن أكتب، أكتب.. وأكتب.. وأكتب، ذراعاي يحاولان السّيطرة على اتزان جسدي قبل السّقوط، وقدماي تشعران بالسّطح الزّلق الذي تقفان عليه، والرّيح تدفعني ذات اليمين وذات اليسار، وما من منقذ.

الكتابة كانت محاولتي الأخيرة لأنقذ نفسي من مصير السّقوط المدويّ يا ميشيل، صرت أكتب لأنسى، لأخرجك من تحت جلدي، صرت أكتب كلّ يوم، كلّ ليلة، أكتب كلّ شيء، كلّ تفصيلة، كلّ نأمة، أكتب عنك، وإليك، مستعيناً بالماريجوانا كي تحملني إلى ضفاف أخرى لم أكن لأتخيّل أنّني سوف أراها يوماً ما، ولكي أطيل زمن استمتاعي برؤية هذه الضّفاف، كنت أستمرّ في الكتابة، مثل محكوم بالإعدام، يعرف مصيره جيداً، لكنّه لا يعرف الموعد الذي سيموت فيه.

أستطيع أن أعرّف لك الآن
وبصفاء تام
معنى كلمة الألم..
الألم

هو ما كنتُ أشعر به
حين أعيد قراءة ما كتبته عنكِ
ولا أجدكِ فيه.

كنت أكتب متخيّلاً أنّني أكتبكِ، وفي الصّباح أعيد قراءة ما كتبت، فلا أراك، ولا أقبض عليك، كنتِ مثل الزّئبق الذي كلّما حاولت القبض عليه بين أصابعي، انفلت من بين أصابعي وانسكب، أنتهي كلّ ليلة من الكتابة وأنا شاعر بالارتياح والطّمأنينة، وفي اليوم التّالي أعود إلى ما كتبت، فلا أجد إلا نتفاً من روائحك، بصماتك التي خلّفتها دون أن تشعري على مخارج الحروف وإيماءات الوجه وأنت تنطقين الجمل المنتقاة، أجد نتفاً ليس إلا، وأشعر بنفسي كما لو كنت طفلاً حاول إمساك حمامة بيضاء حطّت بالقرب منه، وحين اقترب منها، ومنّى نفسه بالغنيمة، لم يجد بين أصابعه، بعد طيرانها، سوى نتف من ريش أبيض كثير، يلمع بين أصابعه تحت الشمس..

حفنة من ريش أبيض
لن تستطيع أبداً
أن تكون جناحاً
للطّيران.

* * *

لم نعد اثنين يختبئان عن العالم بين أربعة جدران.
صار لنا رفيق ثالث نرعاه ونخاف عليه، منذ أن جئنا بها من شقّتك وأنا لم أعد أنا، كيف يمكن أن تغيّرني نبتة صغيرة وضعيفة إلى هذا الحدّ؟ كنت كلّ صباح أقوم وأوّل شيء أفعله هو أن أقترب منها، أتأمّلها جيداً وأنا أبحث عن شيء جديد فيها، عن برعم ورقة غافلني في الليل وظهر في مكان ما، عن تغضّن أصاب السّاق هنا، أو عن ورقة بدأت تصفرّ هنالك، صرت أعود سريعاً من الخارج كي لا أتأخّر عليها، وألغيت أي فكرة مجنونة للسّفر المفاجئ طوال وجودها في شقّتي، حتى عندما كنتَ تأتي إليّ في عطلات الأسبوع، لم تعد لقاءاتنا كما كانت عليه في السّابق، صارت هذه النّبتة هي محور أحاديثنا الطّويلة، وبدأت أتعامل معكَ بشكل مختلف، كأنّ وجودها معنا في المكان جعلني أعمل لها حساباً، حتى أنتَ تغيّرت، صرت أكثر رقّة، وأشدّ عطفاً عليّ.

أصبحت أقضي الكثير من الوقت كلّ ليلة وأنا أشاهد العديد من فيديوهات رعاية نبتات الماريجوانا، لأتعلّم منها كيفية التّعامل معها في كلّ مرحلة من مراحل نموّها، صار لديّ دفتر خاص أدوّن فيه التّعليمات ومواعيد السّقاية ومواعيد رشّ الأسمدة والمبيدات التي اشتريتها للحفاظ عليها سليمة من الأوبئة، صرت أشعر أنّني أمّ ومسؤولة عن طفل صغير ينمو، كأنّني لم أربّ نبتة في بيتي الصّغير من قبل، جاءت شجرتنا لتجعلني لا أهتم بسواها من النّباتات التي كنت أحرص على وجودها في بيتي على الدّوام، ولعي الشّديد بكلّ نبتة حمراء الأوراق اختفى، وحلّ مكانه ولعي بالأرملة البيضاء،

صرت أحدّثها عنكَ وعن باولا، أخبرتها بالكثير من الأسرار التي لا يعرفها أحد سواك عنّي، ملأتْ حياتي عليّ، وها نحن اليوم مطالبون بقطعها قبل أن تجفّ، بعد أن وصل عمرها إلى عام وسبعة أشهر، ووصل طولها إلى ما يقرب من المترين؟!

للمرّة الأولى في حياتي أشعر بأنّني مجبرة على فعل ما، كيف لي - وأنا التي راعيتها كلّ هذه الشهور - أن أفرح بقطعها؟ هذه النّبتة لم تكن مجرّد نبتة، كانت قريناً لي، تعرفني وأعرفها، تواسيني في لحظات غيابك، وتعانقني العناق الذي لم أحظ به من باولا، تاريخها كلّه كتبته يوماً بعد يوم في هذا الدّفتر الصّغير، فكيف لي الآن أن أفرح بقتلها؟!

* * *

البذرة

أمستردام التي سهرت الليل كلّه تهدهد السّكارى والمخدّرين، ها هي تصحو مبكّراً، بعينين محمرّتين وذابلتين، وبشرة بيضاء شاحبة، السّيارات تمرق مسرعة، وراكبي الدّراجات يسرعون ليصلوا إلى أعمالهم، أو إلى مدارس أطفالهم الجالسين على مقاعد صغيرة خلفهم، ممسكين بين أياديهم الغضّة شرائح خبز طازجة، كنت أجلس على مقعد خشبيّ أمام الفندق الصّغير الذي عثرت عليه ليلة البارحة، أدخّن سيجارتي الأولى بعد إفطار سريع، وأتلصّص على تعابير الوجوه وملامح النّاس، وأمامي مجرى مائيّ صغير تمرح فيه بطّات بريّة تحت شمس خجولة، ما إن تظهر أشعّتها لحظة، حتى تداريها غيمات رماديّة مشاكسة.

يوم كامل ما زال أمامي هنا، لا أعرف كيف سأقضي ساعاته الأربع والعشرون قبل أن أغادر في صباح الغدّ، توقّف أمامي فوج سياحيّ من الكهول ينصتون إلى شرح مرشدة سياحيّة عجوز أمام إحدى الكاتدرائيّات العتيقة، فكّرت أنّني لن أصبح أبداً كهلاً مثلهم، سأموت قبل أن تداهمني الشّيخوخة بما لا أتحمّله من أمراض، أو ينتهي الحال بي إلى مرض عضال، ينهي حياتي بأسرع مما تصوّرت.

رفعت عينيّ من جديد إلى المارين في الشّارع هرباً من التّفكير في الموت، واكتفيت بتأمّل جمال الحوريّات الهولنديّات ذوات الأفخاذ المدكوكة المدوّرة وهنّ يعبرن الطّريق، كنّ يقدن درّاجاتهنّ مبتسمات ذاهبات إلى مبنى جامعة أمستردام القريب، شعورهنّ الطّويلة الشّقراء تتطاير بفعل الهواء، كانت ابتساماتهنّ نقيّة وساحرة، وترتجّ نهودهنّ العفيّة مع كلّ اهتزاز لدرّاجاتهن فوق حجارة الطّريق، سحرتني الابتسامات، وجعلتني أبتسم للحياة من جديد، مشيحاً برأسي عن فوج الكهول.

* * *

المصباح المكتبيّ الذي يظلل الصفحة التي أكتبها لك الآن، هو السّبب في أن خطّي متعرّج، ليس لأنّني سكرانة كما ستحبّ أن تفهم، لم أعد أشرب الكحول كثيراً، أشمئزّ من نفسي حين أسكر من الكحول وحده، أشعر أنّني تاجرت بقريحتي أو بعتها لأوّل عابر، الكحول "حالة صفر من النّوع الرّخيص، المشاع، ناهيكَ عن أنّه يجعلني أستعيد صورة باولا وهي تدور مثل لبؤة تتخبّط في الأركان وتتعثّر هنا أو هناك، وهي ترطن بالشّتائم والسّباب لرجال لم أرهم أو أعرفهم من قبل.

أنا مناصرة المخدّر النبتة، وباولا ضيّعت حياتها دون أن تقرّر مرّة واحدة انحيازها الحقيقيّ لشيء ما، عاشت حياتها وهي واقفة في المنتصف من كلّ شيء، منّي، ومن نفسها، ومن الرّجال الذين مرّوا عليها، حتى من المخدّر والكحول، بقيتْ في منتصف المسافة بين "مع أو "ضد"، يُمناها ترفع كأساً من الويسكي، ويسراها تلوّح بسيجارة ملفوفة، لا تعلن عمّا بداخلها.

لم تعد تكاتبني على كلّ حال، ولا أعرف أين هي الآن، كلّ واحدة منّا تتنقّل في جنبات الأرض، وتنتظر يوماً ما يجمعها بالأخرى من جديد، لا أقول هذا لأعبّر لك عن افتقادي لباولا، لا أستطيع حتى أن أسمّيه افتقاداً، فباولا حاضرة دوماً، حتى ولو لم تكن موجودة، صارت مثلكَ، سواء كنتَ هنا أو هناك، أنتَ طاغٍ في وجودك، بقوّة وأثر غيابك.

نعم، أفتقد باولا
صحيح أنّنا عشنا كضرّتين، كقطبيّ مغناطيس متشابهين ومتنافرين، لكنّنا لم نلتق أبداً، ظلّت بيننا هذه الحركة المستمرّة لطاقة رفض ما، طاقة نفور وعداء ومحبّة، مخلوطة بمشاعر من الكراهية والرّغبة المستمرّة في الثّأر لشيء مجهول، حركة مغناطيسيّة تجذب وتبعد في الآن ذاته، فبقينا على ذات المسافة، لا نحن متجاذبتان ولا نحن متنافرتان، ظللنا ساكنين، كلّ واحدة منّا حافظت على موقعها من الأخرى، ولك أن تضيف من حين إلى آخر خلل ما يصيب هذا القانون المغناطيسيّ الصّارم، فباولا كما تعرف، لا تعترف بالقوانين.

آخر ما وصلني منها أنّها تحبّ رجلاً جديداً، كما لو كانت تزفّ لي خبراً استثنائياً وغير متوقّع، وددت وقتها أن أردّ وأقول لها: "وما الجديد في الأمر، أنت دوماً تحبّين رجلاً جديداً؟"

لكنّني تراجعت، قلت ما فائدة أن أضرب تحت الحزام، وأنكأ جرحاً لا فائدة من نكأه، سطرت لها رسالة باردة، لا تخلو من محبّة تربط بين امرأتين متناقضتين، وطلبت منها العناية بجمالها.

أتركك الآن، عليّ أن أنام.. ليلتك سعيدة..
قبلة.. تتبعها قرصة حنونة.

* * *

الفرق بين الحشيش والماريجوانا، كالفرق بين وجبة في مطعم وأخرى في بيت أمّك، وجبة المطعم تفرحكَ وتدخل على قلبكَ المسرّة، لأنّها أخرجتك من روتينك اليوميّ، وجعلتك تجلس في كرسيّ تتصفّح قائمة الطّعام التي وضعها النّادل المؤدَّب أمامك، لتنتقي وتختار وتتلو عليه طلبك، في حين أنّ الوجبة في بيت أمّك تكون دائماً نظيفة، مرتّبة، موثوق بها، وثمّة إحساس جارف بالهناءة يحفّ بك وأنت تتناولها بصحبة شقيقات وأشقاء، ربّما لم يتصادف اجتماعكم منذ شهور سوياً على وجبة مشابهة.

الوجبة في المطعم تشبه الحشيش لأنّك ببساطة ذاهب إليها، أنت ساع إلى هدف بعينه، طالب ولست مطلوباً، ووجبة أمّك هي الماريجوانا، حيث تكون متخففاً من أيّ ثقل أو جهد أو مشقّة تنتظرك، ستأكل وتشرب الشّاي والضّحكات والقفشات تنطلق من كلّ صوب وحدب، وستنام وإحساس الهناءة النّادر يحفُّ بك ويشعرك بالشّبع، الحشيش هو وجبة المطعم لأنّه مركّب، ليس صافياً، مطبوخ، مخلوط، معجون، ويُقدَّم إليك دون أن تعرف محتوياته بدقّة، في حين أن الماريجوانا صافية وواضحة وصريحة، النّبتة الخضراء في يدك لم تزل على حالها، نبتة خضراء، لا فُركت ولا دُهست ولا خُلطت ولا اتّحدت بغير سواها، تمدّ يدك إلى جيبك لتتناول كيسها البلاستيكيّ الشّفاف، فتفركها وتخلطها في تبغك وتدخّنها، بهدوئك أو قلقك وارتباكك أنت، فليس من وسيط بينك وبينها.

ويأتيك الحشيش جاهزاً وغامضاً ومريباً، اللون البُنّيّ المحروق يُخفي خلف دُكنته ما لا علم لك به، ولا يدلّ على ما فيه من خلائط أو مكوّنات، ولذلك يختلف الحشيش من صانع إلى آخر، من بلد إلى آخر، من كيد إلى آخر، بالضّبط مثل طبق الأرز الذي تتناوله في المطاعم، يختلف من طاه إلى آخر، الطّعم النّهائي والأثر الأخير لقطعة الحشيش تتحكّم فيه عوامل لا حصر لها، بدءاً من الأرض التي أنبتت النّبتة، وانتهاء بالشّخص الذي باعك إيّاها، مروراً بكلّ المراحل التي عبرتْ بها قبل أن تصل إلى يدك، من زرع وحصاد وجمع وتخزين، ثمّ فصل الثّمرة عن عودها، ونخل وانتقاء، ونقل إلى غرف معتمة لا تصلها الشّمس ولا النّور، فطبخ.. فعجين.. فلفّ.. فقطع.. فتوزيع.

صانعو الحشيش كالطّهاة في المطاعم، يتفننون في صناعتهم، راغبين أن يعود زبونهم إليهم من جديد وبأسرع وقت، فيزيدون من البهارات التي تجعل من أطباقهم سبباً ليسيل لعابه، فتجد هذا يُزيد من نسبة حبوب الهلوسة، وذاك يزيد من نسبة أطراف أزهار أنثى نبتة القنّب الهنديّ، وآخر يضع قليلاً من البانجو، ورابع يضحك عليك ويبيعك الحنّة مخلوطة بالبانجو وحبوب الهلوسة وليس من ذرّة حشيش في الطّبخة كلّها.

الحشيش فوق ذلك أنواع ودرجات ومستويات، لديك حشيش الدّرجة الأولى، وحشيش الدّرجة الثّانية، وحشيش الدّرجة الثّالثة، كما ستجد أيضاً – وبوفرة تبهجك – حشيش الرّمرمة، المصنوع من

بقايا وفُتات الدّرجات الثّلاث، أمّا الماريجوانا فأصناف ومسمّيات وخانات، وأغلى أنواعها هو چاك هاز، يليه الهاز القرمزيّ، فـ"تشيز هاز"، وتختلف الأصناف والأنواع من مكان إلى آخر، فتجد أنّ القائمة تطول لتضمّ: الأرملة البيضاء، بروبانتس الأشقر، سانتا ماريا، ديزيل، النمر الأسود، نيويورك ديزيل، الحشيش البرتقاليّ، عيش الغراب السّحري، ak47، ثمّ المنسوب إلى بلاده: الألمانيّ، الهولنديّ، الجمايكيّ، الأفغانيّ، المغربيّ، التايلنديّ، الكولومبيّ، والمكسيكيّ، إلى آخره، أو.. آخرك.

في كلّ جلسة تجمعني وميشيل، كان أمر التّفريق بين الحشيش والماريجوانا هو لعبتنا المفضّلة، نشرب وندخّن، وحين نصل إلى نقطة معيّنة من السُّكر وسريان المخدِّر في دمائنا، نبدأ في فلسفة الحالة التي يشعر بها كلٌّ منّا، وفي كلّ مرّة نحاول التّركيز جيداً فيما نشعر به، لنخرج بتعريف يقارب ما نحسّه من تأثير راهن وآني لما يعترينا، وهو الأمر ذاته الذي جرّبناه مع متع الجنس المتعدّدة، فما أن يضربنا السُّكر تماماً وتنحلُّ عقد لساننا، حتى نبدأ في ممارسات تعرّينا أو رقصنا أو حتى حملنا بشكل مختلف ومغاير عما تعوّدناه، معرفتي الطّويلة بها جعلتني قادراً على التّمييز بين حدودها الفاصلة بين السُّكر والصّحيان، كما أميِّز بين أبيض النّهار وأسود الليل، فما أن تدخل في نوبات دندنة تطول وأرى احمرار عينيها وارتعاش أصابعها وهي تتناول سيجارة بعد أخرى، حتى أعرف أنها دخلت "المنطقة الآمنة" كما كنّا نسمّيها، منطقة عدم التهيّب من أفعالنا أياً كانت، حيث نفعل دون أن نفكّر أو نضع الحسابات البشريّة المعقّدة،

حيث نقول، دون أن نخشى وقع كلماتنا على سامعيها، حيث نقع دون أن نتألّم، المنطقة التي نعثر فيها على ذواتنا الحقيقيّة دون متاريس أو أقنعة أو مساحيق تجميل، أو دروع نخبّئ خلفها هشاشتنا وضعفنا وقلة حيلتنا.

كنت أدرك أنا الآخر أنّها مثلي، تعرفني تمام المعرفة، وتعرف صوري المتعدّدة في الدّخول إلى هذه المنطقة الآمنة، والصّمت كان إحدى هاته الصّور، جلوسي مباعداً بين ساقيَّ، رامياً رأسي إلى الوراء وهي راقدة على فخذي، أدخّن مغمض العينين، ويدي اليمنى تتحسّس ردفيها العاريين تحت أصابعي، يدي اليسرى تلقم فمي السّيجارة وتباعدها، نافخاً سحب الدّخان الغامقة في العتمة الحميمة التي تخيّم علينا، كنّا نشرب وندخّن ونضحك ونصمت ونغفو، ونحن نترقّب بحواسنا الحادّة، أيُّناً سيسبق الآخر في الدّخول إلى هذه المنطقة، وحين يدخلها أحدنا يصبح الأمر سهلاً على الآخر كي يلحقه، ليشاركه متع الغياب عن الوعيّ، كان الأمر أشبه ما يكون بالعدوى، ولم نكن لنبخل على أنفسنا بالوصول إلى متعة هذه الحالة الآسرة من التوحُّد مع الذّات في وجود الآخر، تعلّمنا أن نسخّر كلّ طاقاتنا كي نسارع ونرسو إلى هذا الشّاطئ الرّخو في الدّماغ، متّخذين من كلّ ما يحيط بنا سبلاً تساعدنا على بلوغ مرادنا هذا: الموسيقى الهادئة الجارحة الحزينة، وهي "تُنكِّل بمشاعرنا كما كانت ميشيل تحبّ أن تقول، العتمة التي تفرد ثوبها القطيفيّ النّاعم فوق عيوننا، حفيف حركة أجسادنا التي تكاد تكون عارية فوق سجّادة الأرضية أو بين ملاءات السّرير، أو فوق المقاعد أو

كنبة الصّالون الجلديّة الخضراء، لمساتنا غير المتوقّعة التي يبادر بها أحدنا، فيردُّها الآخر بلمسة أطول وأعمق، وأكثر حنواً ودفئاً.

الأبجديات التي كنّا نتعامل من خلالها في هذه اللحظات، لم تكن تتّسع لها لغة أو لسان، كنّا نشعر بالثّواني التي تمرّ علينا حينها، تتباطئ وتثقل، لتتفكّك، وتنحلّ، وتتشظّى، وتتفتّت بين أيادينا، كأنّها تمنحنا الفرصة لسبر أغوارها، والنّظر بعمق داخل مكامن أرواحها، كنّا ندرك أنّها هي ذاتها الثّواني التي كانت قبل قليل تعبرنا سريعة ومتعاقبة، دون أن نشعر بها أو نحسّ، صارت الآن أثقل، وأبطأ، وأكثر كثافة وخفّة في آن واحد، صرنا نتذوّق ونرى ونشمّ ونحسّ ونلمس الثّواني وهي ترفرف فوقنا، ونحن جالسين متشابكي الأطراف والأعضاء، أمدّ يدي لأسحب سيجارة من فوق الطّاولة الموضوعة بين ساقيّ، فتمدّ يدها بقداحتها لتشعلها لي، تهمّ بالوقوف كي تدخل الحمّام أو لتتناول شيئاً، فتجد يدي تسند ظهرها، أو تلحق كأسها المملوء بالنّبيذ وتنقله بعيداً قبل أن تطوّحه بقدمها الحافية، أهمّ بنطق كلمة ما، فتكملها في جملة كنت أهمّ بقولها، تقلب شفتها السّفلى متأفّفة من إحساس طارئ بعدم الرّاحة، فأفكّ مشبك سوتيانها، وأحرّر نهديها، ليرجع وجهها صافياً ورائقاً، مثل بحيرة في ليل، ليس له آخر.

الفرق بين الحشيش والماريجوانا، كالفرق بين عضوك ذاك.. وفرجي هذا.

تخبطني جملة ميشيل فأسقط إلى الخلف غارقاً في ضحك لا نهاية له، أشعر بأمعائي تتقلّص وتدمع عيناي وأنا أسألها في كلمات مبتورة المخارج:

- من أين جئت بهذا التّفريق العجيب يا عبقرية؟!

فتضحك، لكنّها سرعان ما تنظر إليّ فجأة بملامح جادة:

هذا هو تحديداً الفرق الذي أشعر به الآن بينهما.

وتصمت من جديد، فأسألها مذّاعباً وأنا أنظر إلى ما بين فخذيها:

وهل لهذا التّفريق العبقريّ علاقة بما يشعر هو به الآن؟

ترمقني مندهشة وهي تحني رأسها لتنظر إلى ما بين فخذيها العاريين:

- لا، لماذا؟ وهل لاحظت أنت شيئاً غريباً عليه؟!

لا، أنا فقط أجد أن تفريقك بينهما كان غريباً بعض الشيء.

تشدّ نفساً طويلاً من سيجارتها قبل أن تدهسها في المنفضة وتقول وهي ترمقني بعينين عميقتين:

أنظر، إن كان ما قلته قد أضحكك فأنا سعيدة أنّني أضحكتك، لكن هذا هو تفريقي بينهما الآن، ثم إنّ لديّ الحقّ كلّه، واللغة تقف إلى جانبي يا لئيم، الحشيش مذكّر في أغلب اللغات والماريجوانا مؤنثّة في أغلبها، طزّ فيك.

نظرت إليها مبتسماً ومددت يدي لأطفئ سيجارتي في المنفضة الموضوعة بين فخذيها، متعمّداً أن أحكّ ذراعي ببطن ركبتها اليسرى المثنيّة ناحيتي:

- هممم، إذن هو اليوم ماريجوانا، لذيذ.

فتحت ساقيها واستلقت بظهرها على السجّادة وهي تجذب رأسي إلى ما بين فخذيها:

- نعم، تريد أن تتأكّد؟

تأمّلت عانتها المشذّبة بعناية، وشعرت بها تدسّ رأسها بين فخذيّ دافعة ساقي قليلاً إلى أعلى:

أرني حشيشك.

* * *

أصبحت محاولاتي للتقرّب من أيّ امرأة أخرى، حتى ولو كانت تعجبني، محفوفة بالكثير من المخاطر النفسيّة، التي كنت أعرف جيّداً أنّها لابدّ ستؤذيني، كنت في قرارة نفسي أعرف أنّ محاولاتي هذه، تأتي من رغبتي المتّقدة دوماً في اكتشاف أرواحهنّ، في لمس هذا الجزء المعتم من وجودهنّ، والذي ربّما لم يعرفن بوجوده أصلاً، قليلات جداً هنّ من منحنني أرواحهنّ كاملة، وكثيرات جداً من جعلنني أفقد رغبتي في محاولة الاقتراب، المحاولة في حدّ ذاتها صارت غير ذات أهمّية، حين تدفعك متاريس، يتمّ التّحصّن خلفها، لترتدّ إلى قواعدك فاشلاً ومهزوماً، فما بالك بمحاولات المحبّة المتكرّرة، التي تثبت فشلها يوماً بعد يوم.

في كلّ مرّة كنت أحبّ فيها، كانت ميشيل تختفي من حياتي وكأنّها لم تكن، كأنّها تمنحني الفرصة كاملة كي أدخل التّجربة بكامل حرّيتي وتحرّري منها، وبوصفها الأقرب لي، كنت حين أبدأ في الشّعور بإحساس الحبّ تجاه امرأة ما أخبرها على الفور، كانت تضع كفّها تحت ذقنها المدبّبة، وتنصت بشغف يزيد من رغبتي في الحكي، عيناها تتّسعان وتضيقان وتستفسران وتتساءلان وتستغربان بحسب ما أحكيه، وما إن تشعر أنّني غارق في الحبّ حتى تختفي، أبحث عنها في الأماكن التي تعوّدنا اللقاء بها دون جدوى، أطرق باب بيتها فلا يُفتح، أتّصل بها فلا تردّ، أكتب إليها الإيميلات فتأتيني ردود أتوماتيكية تفيد بأنّها على سفر غير معروفة نهايته، لم أكن أعرف أين لي العثور عليها من جديد، فترات اختفائها المريب هذه دفعتني إلى تدوين كلّ ما أودّ قوله لها لتقرأه حين تعود، لكنّها

لم تكن تظهر إلا بعد أن أكون شفيت تماماً من غرامي بالمرأة التي تمنّيت طويلاً، أن أحكي لها عنها، تعود وكأنّها لم تغب، تنصت من جديد دون أن تطرح الأسئلة، فألخّص الحكاية في جملة أو اثنتين، كأنّني أغلق باباً لا أريد أن أفتحه، فضولها الذي أعرفه كان يتعطّل، كانت تحترم الجروح فلا تحاول نكأها من جديد بمزيد من الأسئلة، وتمرّ لقاءات كثيرة بيننا دون أن تستجيب لمداعباتي ونحن ندخّن سجائرنا، كلّما حاولت تردّني بقبلة خفيفة:

تحتاج روحك وقتاً كي أستطيع لمسها.

سألتها ذات مرّة لماذا تتعمّد الاختفاء في كلّ مرّة أبدأ فيها حبّ امرأة أخرى، فلا تردّ، ابتسامة سريعة كانت تخايل شفتيها وهي تمدّ يدها لتقرص خدّي تضرب كتفي، أو تمسح على ظهري بأصابعها، ما كان يشعرني وكأنّني طفل لم يكبر بعد ليسمع منها إجابة على سؤاله، وهو ما دفعني مرّات عديدة إلى الانفجار في غضب، كنت أرفع صوتي وأحطّم ما أجده قريباً من يديّ، وأتّهمها بالتخلّي عنّي في أدقّ لحظات احتياجي إليها:

ربّ روحك دوني.. أنا أضعف من أن أظلّ جوارك دوماً.

ردودها الحادّة كانت تجعلني أزيد من جرعات الماريجوانا في سجائري، وأخرج مدوّياً بابها خلفي، أسبّ وألعن وأقسم لها أنّني لن أعود إليها من جديد.

بعد أيّام، أكون أمام بابها، أطرق بإصبعين، وأنصت لوقع قدميها الحافيتين تخبطان باركيه الصّالون، قبل أن تفتح الباب بابتسامة مخاتلة، وهي تلقي خصلة شعرها من فوق عينيها إلى الوراء.

* * *

الرّائحة، العبير الآسر لمعنى الجسد، الرّحيق الأوّليّ لكينونة أعضائنا البشرية، الرّائحة هي القطرة المعتّقة الأخيرة التي سقطت في غفلة من إناء الرّوح، قبل أن ينفصل عن ثقل الجسد، حبل السّرة المنسيّ عن عمد، الذي ما يزال يربط بين المدنّس والمقدّس فينا، الذي تضبطه أنوفنا، ولا تراه أعيننا أو نقبض عليه بكفوفنا، الرّائحة أيّها الذّكر المعميّ بذكورتك، الرّائحة لديَّ هي المفتاح بيني وبين العالم، بيني وبين الرّجل الذي أُخضع له أنوثتي عن طيب خاطر، وتلذّذ، وخضوع، الرّائحة هي السرّ في جميع من عرفتهم من رجال، كانت هي التّفاحة الأولى تحت أسناني، هي النّافذة الأولى التي أطلّ منها على نفسي، بكلّ ما فيها من أبواب مغلقة، وكنوز مخبّأة، وأرواح لم تظهر بعد.

كامرأة، لم أتاجر خلال حياتي التّافهة بروحي، لم ألقها على العتبات، ولم أعرضها على الأرصفة، كرّمتها كما كرّمتني، ورفعت من عرشها عالياً، حين جعلت من نفسي امرأة تتبع أنفها، العين والقلب يكذبان، العقل واللمسة العفويّة يكذبان، أما الأنف فلا.

أعرف أنّك لن تفهمني، ذكورتك المدبَّبة المشْهرة المنتصبة المتأهّبة لن تستوعب "المنحنيّات، والدّوائر النّاقصة، والفالت، والزّجراج"، لن تجتهد في فهم الدّائرة ما دامت ذكورتك مشدودة في قوس أحد الرّماة في صورة سهم مدبّب، تضيق العينان من خلفه، وهي تصوّب في قلب الدّائرة الحمراء.

لن تفهمني، لأنّك مشدود، وأنا مُرتخيّة، أنت تنتظر لحظة الطّعن، وأنا أنتظر لمسة المشفق على دمّ الذّبيحة، ربّما يكمن الفارق بيننا هنا، أنتَ لا تؤمن بالرّائحة، لأنّك راغب في موضع الرّائحة، وأنا أومن بالرّائحة، لأنّها النّكهة الأولى لموضع الرّائحة، النّوار النّادر الذي لا يدوم، لكنّه الأصل في أن تزهر الثّمرة.

نعم، الرّائحة، تلك التي تتبدّل من شخص إلى آخر، من حالة إلى أخرى، من يوم إلى آخر، طوال حياتي وأنا أتشكّك في أنّ حواسّي خمساً مثل بقيّة النّاس، كيف تكون حواسّي خمس، وأنا أخلق من المزج بينها حواسّاً جديدة؟ اللسان يتذوّق، لكنّه يلمس أيضاً، خالقاً حاسّة أخرى، جديدة وغير مسبوقة، اللسان المتلمّس لساناً آخر، المحموم وهو يرتشف الرّحيق متحسّساً الشّفتين، وناهلاً ريق الحياة، اليد التي تلمس وتشعر، ليس في مقدورها أكثر من أن تلمس وتشعر، العين التي ترى، ليس في مقدورها فعل المزيد غير أن ترى، لكنّ اللسان قادر على أكثر من التذوّق، حين يلمس ويخلط مزيج اللمس والتّذوق، خالقاً حاسّة أخرى، الأنف قادر على أكثر من الشمّ حين يتتبّع الرّوائح ويفرّق بينها، حين تقوده الرّائحة وتدلّه على النّبع، فينهل ما استطاع، أستطيع أن أقول إنّني طوّرت من حواسّي التي ولدت معي خمساً، فجعلتها أكثر، تاركة لأنفي القرار الأخير، نصّبته حكماً، وكنت أطيع، وها أنا أمامك الآن، عارية إلا من أنفي، امرأة تبعتك العمر كلّه، دون أن تكون معكَ، أبقتكَ على المسافة الصّحيحة بين أن تكون لها وحدها، أو تتشاركك مع

أخريات، لم أزهد فيكَ لأخسرك، ولم أطمع فيك لأمتلكك، تركتك تحيا تحت عيني، واكتفيت بأنّك تحيا.. تحت عيني.

ليس الجسد أيها الذّكر، في اللحظات التي كنّا نتعارك فيها فوق سريرنا، موجّهين الضّربات العنيفة بالقدم والقبضات المضمومة لأحدنا الآخر، ونحن نتشاتم ونتشاجر وتسبّني وأسبّك، لم يكن الجسد هو من يقول الكلمة الأخيرة يا صاحب الجسد، الجسد كان يحمرُّ، ويزرقُّ، وتنزّ دمائه من الخدوش والخربشات، لكنّه كان يعجز في كلّ مرّة عن قول الكلمة الأخيرة، ما كان يجعل روحي تنفتح وقتها تحت ضرباتك مثل زهرة عبّاد الشمس، كانت رائحة الغضب التي تصلني ممزوجة برائحة تبغك وعرقك الخفيف، رائحة رجولية كنت أتحسّسها بحركة خفيفة من أصابعي وأنا مستلقية تحت صدرك أتلمّس الشّعيرات الخفيفة تحت إبطيك، وأنت تتعرّى فوق نهديَّ فأشمّ العبق الرّهيف لتعبك اليوميّ.

لو أردّت أن أعرِّف نفسي أمامك الآن، سأقول: "أنا امرأة تبعت أنفها حتى النّهاية.. دون أن تندم"

* * *

أوّل شروط الدّخول إلى "الحالة صفر كما كان يحلو لميشيل أن تسمّيها، هي العمل على جعل تفكيرك مشلولاً، أن تحاول التّنفس بعمق، ساحباً أكبر كمية من الهواء إلى رئتيك، مغمضاً عينيك وفارداً عمودك الفقريّ، بحيث يصنع خطّاً مستقيماً مع فقرات العنق، في هذه الحالة لا يهمّ شكل جلستك، إن كانت فوق مقعد أو فوق كرسيّ أو جالساً القرفصاء، أو حتّى متربّعاً فوق الأرض مثل إله بوذيّ، أو متصوّف هنديّ يدخّن الماريجوانا في باحة أحد المعابد، المهم أن تُرخي عضلات جسمك كلّها باستثناء عمودك الفقريّ، الذي ستجعله مشدوداً ليصنع خطّاً مستقيماً مع عضلات رقبتك، بعد عدّة دقائق من التّنفس المنتظم، ستبدأ في إرخاء ظهرك ليتخذ الوضعية الأكثر راحة لجسدك، في الحقيقة أنت لن تفعل ذلك عن عمد، مَلءُ رئتيك بالهواء والاحتفاظ بإيقاع منتظم في الشّهيق والزّفير سيجعلان ظهرك يسترخي دون إرادة منك، كلّمة السرّ في "الحالة صفر هي الهدوء التام؛ الابتعاد عن أيّ ضجيج صوتيّ أو تأثير يأتيك من العالم الخارجي، ولذا تنصح ميشيل أن تكون في غرفة مغلقة، وألا تحاول الدخول إلى هذه الحالة إلا ليلاً، حين تغفو الخلائق وتتصّفد غرائز النفوس، وتصفو السماء في الخارج وهي تلمع بنجوم كثيرة، لن تستطيع – على الأرجح رؤيتها وأنت في غرفة مغلقة، ناهيك عن أنّك تجلس مغمض العينين!

كنت مستلقياً فوق أرضيّة الغرفة حين بدأت أستعيد تعاليم ميشيل بخصوص الدخول إلى "الحالة صفر"، مرتدياً ملابسي كاملة

تقطر بلّلاً نتيجة الأمطار الغزيرة التي قدّت درّاجتي تحتها طويلاً في طريق عودتي من العمل، كانت معدتي خاوية بشكل جعلني أشعر أنّ روحي خفيفة مثل روح متصوّف تائه في الصّحراء، اعتدلت من رقدتي جالساً وخلعت معطفي وقميصي وبقيت عاري الصّدر أحدق في زجاج النّافذة المطلّة على الشّارع، سيل المطر الذي كان يصطدم بالزّجاج المزدوج للنّافذة كان أشبه بخراطيم مياه مفتوحة ومصوّبة بإتقان، دفعني الصّوت المكتوم لسقوط الأمتار على الزّجاج إلى النّهوض بصعوبة والتوجّه إلى السّتارة البيضاء السّميكة وسحبتها ببطء، استدرت وسرت ستّ خطوات لأفحص مؤشّر المدفأة الكهربائيّة على الحائط المقابل، فوجدتّه مثبّتاً على الدّرجة الثّالثة، شعرت بامتنان مفاجيء وغريب للمدفأة وللحوائط الأربعة التي تحميني مغبّة النّوم في العراء أو تحت الأشجار أو في البيوت المهجورة، رفعت ساقيَّ بثقل وخطوت مرّتين أو ثلاثاً لأستلقي من جديد فوق أرضيّة الغرفة، لم أشعر بالبرودة وأنا أفرد جسمي ويلامس ظهري العاري الأرضيّة، كان خشب الباركيه يختزن الدّفء الذي ينساب في صمت من جنبات المدفأة ويحتفظ به ليبثّه في بشرتي العارية.

وجدتني فجأة أفكر في ميشيل التي غابت منذ شهور دون كلمة واحدة، كيف ولدت وتربّت متشرّدة مع أمّها التي كانت تتنقّل مثل حمامة بين البلدان، تعزف الكلارينت في الطّرقات وقبّعتها البالية أمامها على أرصفة الشّوارع، وكلبها السّلوقي يتربّع عن يمينها،

فيما تحرس ميشيل ذات السّنوات الخمس حينها القبَّعة، وهي تعدّ كلّ سنت يرمى فيها.

عبقرية ألا يكون لديك وطن..

كانت ميشيل تتنهَّد وهي ترمي عينيها في البعيد كلّما حدثتها عن حنيني لبلدي، أغمضت عينيَّ وأنا مستلق، مستعيداً اللمعان الغريب في عينيها كلَّما نطقت هذه الجملة، التي لم أكن أعرف وقتها على أيّ محمل لي أن أفهمها، كنت في الحقيقة أتحيّر من فكرة أن تكون ميشيل سعيدة بأنّ لا وطن لها، وحين كنت أعلق مستغرباً:

حتى من لا يملك وطناً، يصنع لنفسه وطناً.

كانت تردّ دون أن تلتفت لي:

إن كان لي أن أكون مدينة لباولا بشيء، فلا أدين لها إلا بأنّها حرّرتني من فكرة أن يكون لي وطن.

صحيح أن ميشيل ولدت في غرفة صغيرة بعليّة بيت في ضواحي أمستردام، لكنني لم أعرف أبداً أيّ جنسيّة تحمل، في سفراتنا سوياً رأيت ثلاث وثائق سفر كلّ منها يتبع دولة ما، وكانت اللغات العديدة التي تتقنها تسبّب لي مغصاً ومتاعب في الأمعاء كلّما عددتها، ولا أفهم كيف استطاعت أن تتحمّل كطفلة تشرّد أمّها غير الإنساني بين البلدان بهذا الشكل.

– باولا باولا باولا، أين أنت الآن، وإلى أيّ جحيم جديد تقودين سيارتك الخضراء أيّتها العاهرة المخلصة؟!

* * *

كان هدفي الأول في كلّ مدينة زرناها سويّاً:
كيف سنحصل على مؤونتنا؟
الله لا ينسى عباده الصّالحين!

كنت تردّ عليَّ ساخراً، فتزيدني الجملة إصراراً على توفير المؤونة من أوّل يوم لنا في المدينة، أيِّ مدينة؛ في ميلان اشتريت حشيشاً أفغانيّاً من عامل مصريّ بالفندق بعدما أهديته قلادتي الفرعونيّة، في مدريد اشتريت الماريجوانا في ميدان لا أذكر اسمه به تمثالان لدون كيشوت وتابعه الأمين، في الجزائر اشتريت حشيشاً محليّاً في سوق شعبيّ مع زجاجات النّبيذ الأحمر، في برلين اشتريت الماريجوانا من شابين أفريقيّين في متنزّه عام، في كلّ مكان تقريباً استطعت أن أؤمّن مؤونتنا من المخدّر، وحين قرّرتَ أنتَ أن تتصدّى لتأمين مؤونتنا، ضحكوا عليك في ليشبونة وباعوك السّبانخ المجفّفة على أنّها ماريجوانا!

لا تنسي أنّهم ضحكوا عليكِ أيضاً في ريغا وباعوك العشب المجفّف على أنّه ماريجوانا!

شممته يا غيبّ، كانت رائحته ماريجوانا، كانوا محترفين ووضعوا ما يجعلني أظنّ أنها ماريجوانا، أمّا أنت فتشتري كيساً بلاستيكياً بمئة أورو دون أن تمرّره على أنفك لتتأكّد من رائحته، فهذا هو الغباء بعينه.

وكيف لي أن أتشمّمه في ميدان عام أيّتها الذّكية؟ الشّاب سار بجانبنا وهمس في أذني بكلمتيّ الماريجوانا والحشيش

ففرحت، وقلت إنّني حين أشتري منه أعفيك من عناء البحث.
ثمّ لا تقارن ما حدث معي في ريغا بما فعلوه معك في ليشبونة، الموقفان مختلفان جداً.
- وأين الاختلاف، هنا ضحكوا عليّ.. وهناك ضحكوا عليك؟
اعطني سيجارة!

ونصمت.

تذكر حين تعرّينا على شاطئ مارماريس؟
أمممم، في الليل.
أريد أن أعود إلى نفس المكان الآن، معك.
شششش، هنا أفضل.
أنتَ كسول، قل إنّك تريد أن تكون معي الآن، هناك، في الليل، وتحت القمر، وأمواج البحر.
هنا أفضل، وأكثر دفئاً.
أنت بارد!
ادفئيني.

تضمينني إليكِ أكثر، عاريين تحت الغطاء، ونصمت.

لماذا لا يشرّعون الماريجوانا والحشيش في جميع أنحاء العالم،
هؤلاء الأغبياء؟
لأنّهم ليسوا مجانين مثلكِ.
هم أكثر جنوناً منّي في الحقيقة.
اقتربي، واطفئي سيجارتك.
هممممم..
أكثر!

ونصمت طويلاً جداً.

بينجووو، ضحكوا عليك في القاهرة وباعوك الحِنّة على أنها حشيش.

ونضحك.

* * *

ها أنتِ الآن نائمة في فراشك، على جانبكِ الأيمن، ظهرك مقوّس قليلاً، ويدكِ اليمنى تحت وسادتكِ، تغمضين عينيكِ وأنتِ تنتظرين أن يغافلكِ النّوم سريعاً، تتنهّدين، تغيّرين من رقدتكِ قليلاً، تزيحين خصلة الشَّعر التي غطّت عينيكِ، وتعاودين التنهّد.

كأنّني أراكِ، ملايين الأميال تفصل بيننا، جبال ومحيطات وأنهار وبلاد وسحب وغيمات وأقوال نميمة وأكاذيب، لكنّني أراكِ، حدود وأسلاك شائكة وسجون ومعتقلات وساحات تعذيب وأسواق نخاسة وميادين للقتل وميادين للرّجم وميادين للعراة وميادين لإقامة الصّلوات، لكنّني.. أراكِ، لا يهمّ عن بعد أو عن قرب، لا يهمّ من خلف عتمات لا تنجلي أو من وراء سُتُرٍ أو نوافذ مغلّقةٍ وشرفات لا تُفتح أبوابَها للصّباحات النّدية، أراكِ، حتى ولو أغمضت عينيَّ، حتى ولو أطفأت مصباح حجرتي، حتى وأنا أرى الآخرين.. أراكِ.

السّيارات تمرق تحت نافذتي وعجلاتها توزّع برك الأمطار على الجانبين، السّكاري يترنّحون على الأرصفة ويتبادلون الشّتائم ورميّ زجاجات البيرة والإشارات البذيئة، وأراكِ، أشعل سيجارة من أخرى، أصبُّ نبيذي في كأسي المملوءة وأقول: نامي، نامي كي أرى عينيكِ في الصّباح مشرقتين ومنوّرتين، نامي كي تريحي عقلك المتعب من جسدك المتعب من روحك المتعبة، نامي كي ما أنام، وأغفو، لأكفَّ عن أن أراكِ.

قلبي يصبح ثقيلاً مثل شجرة بلّوط سقطت فوق عُليّة بيت بعد عاصفة، يحاولون زحزحتها فيهدمون العُليَّة ويدمّرون البيت، قلبي الصّغير، النّابض الآن وهو يتشرَّب النّيكوتين بحذر مدمن، ماكينة ضخَ الدّم في الأوردة والشّرايين، العنيد، الغبيّ، يصبح ثقيلاً مثل شجرة بلّوط حين يراكِ نائمة هكذا وحدك، تتقلّبين، تتنهّدين، تزيحين خصلة الشَّعر مرّة ومرّتين وثلاث، فيصير أثقل من شجرة بلّوط، أتمنّى لو أزحزحه قليلاً عن الجهة اليسرى، قليلاً، فلا أستطيع، أقول له اهدأ، فلا يهدأ، أطعمه النّيكوتين نَفَساً بعد نَفَسٍ، أجعله يغمض عينيه لينصت إلى الموسيقى التي اندلعت في الأعالي حين تذكّرتُ عينيكِ، فلا يهدأ، ينبض أكثر فأكثر، أقول له اهدأ، وأزيده زحزحة، فأسمع ضجّة انهدام جدران، وصوت تحطّم خشب عُليّة.

أكحّ، كأنّني كهل يصعد الدّرجات متحاملاً على ساقين أنهكتهما السّنون، وقلبي، العنيد، الغبيّ، يسابقني على الدّرجات، أجرّ رجليَّ واحدة بعد أخرى، وهو يتقافز ضاحكاً أمامي مثل أولاد الشّوارع، يُخرج لسانه لي وهو يمسك بالدّرابزين وقدماه تطيران إلى أعلى، ترفعانه كما لو كان دخان سيجارة تطير من نافذة إلى الهواء في الخارج.

الكُحَّة القديمة، المشروخة، المعبّقة بالدّخان، المجروحة، الموجعة التي تسمعينها الآن، التي تتردّد في جنبات غرفتكِ المعتمة، التي تنهمر على جسدك النّائم كلوح من الزّجاج المتكسّر، التي تتقافز فوق سريرك الآن دون أن تشعري بها، الكُحَّة ذاتها بنت السّنين

الخوالي، حين كنت صبيّاً صغيراً، يتخفّى في صالة سينما ليجرّب سيجارته الأولى بعيداً عن أعين النّاس، هي التي تنطلق الآن، فالقة العتمة المحيطة بي إلى عتمات تتوالد من بعضها البعض، مزحزحة قلبي عنوة، إلى الجهة اليمنى.

نامي، اغلقي عينيكِ ودعيني أمسّد شعركِ النّاعم، أحبّ أن أمسّد شعركِ وأنت غافية أمام عينيَّ، وأنا أتنشّق رائحة الشّامبو الأرجوانيّة تملأ رئتيَّ بالدّفء وبالبخار السّاخن، الذي يتصاعد من جسدك المبلّل في اللحظة التّالية لحركة إصبعيك حين يضغطان محبس الدُّش، اللحظة التي تتساقط فيها قطرات المياه من على شعركِ المبلّل اللامع، متهاوية في الأخدود السّحري لعمودكِ الفقريّ، لتفترق من جديد على منحنيين لا يكتملان.

أمدح قطرات المياه ولا أمدح جسدكِ، أمدح عفوية السّقوط، الاستسلام القانع لضرورة مغادرة هذا الجسد بهذه السّرعة والاندفاع، بهذا الخنوع، وبهذه المذلّة، أمدح البساطة الآسرة في القناعة، في الرّضا بما هو مكتوب ومقدَّر، أمدح استدارتكِ البطيئة، المتمهّلة، المتأنّية، الصّبورة، طويلة البال، أمدح إغماض عينيكِ وأنتِ ترفعين رأسكِ قليلاً إلى أعلى، وكفّيك يمتدان إلى شعركِ تعصرينه من المياه، أمدح صوت سقوط المياه على رُخامة البانيو، أمدح البانيو حين يراك من أسفل، حين يراك في اللحظة ذاتها من الجهات الأربع، أمدح الجهات الأربع، ويدي تمسّد شعرك النّاعم.

منشفة الحمّام كفيلة بما تبقّى، تتشرّب القطرات واحدة بعد أخرى، بصبر، وتبتُّل، وأنا أرفع خصلات شعركِ من الخلف؛ الشّامة الأولى على رقبتك، العرق النّافر المنتفخ المزرقّ وهو ينبض في رقبتك، قرطكِ الطّبيّ الذي ترتدينه منذ عشر سنوات أو أكثر، و.. رقبتك، يدي تمسكان بالمنشفة من طرفين، وشبّاك الحمّام الموارب وهو يهرِّبُ البخار السّاخن إلى عتمة الليل، ومرآتك التي تواجهني فأنظر فيها محاولاً أن أرى وجهي في الغبش المائيّ فلا أراني، أمد كفيَّ لأتأكّد منكِ فلا أجد كفيَّ، أرفع ساقي عن الأرض فأراها ثابتة لا تحيد.

أقول نامي، لأنّني لا أرى شيئاً ولا أشمّ شيئاً ولا أتذوّق شيئاً ولا ألمس شيئاً ولا أتحسّس شيئاً ولا أشعر بشيء، أقول اتركيني أغمض عينيّ ولو قليلاً، أريد أن أغفو، أن أريح رأسي بين نهديكِ، أن أشمّكِ، أن أراكِ، أن أتحسّسكِ، أن أعضكِ، أن ألعنك.

أريد لو أنام كما لو كنت ميّتاً، بلا أحلام أو كوابيس، بلا رؤى أو بِشارات أو أهلّة أو نجوم، أريد أن أغفو كما لو كنت نائماً على صدر أمّي، أمضغ الحلمة البكر وأرتشف زلال الحياة، أتركيني ونامي كي ما أنام ولا أراك، تعبت من رؤيتك، من النّظر إليكِ دون أن ألمسك، تعبت من رائحتك التي تطاردني كما لو كانت كلاب سعرانة، وتعبت من قول: نامي.

هنا، هنا بالضّبط، وسط الكتفين، على التُّرقوّة، على عضلة الكتف اليمنى وعضلة الكتف اليسرى، بينهما، أسفلهما، على لوح الكتفين، نزولاً بطيئاً إلى الخاصرتين، فوق الكبد والطّحال والكُليتين، آخر فقرة في عمود الظّهر، أوّل الحريق وآخر المجزرة، وأصابعكِ، يا دين أصابعكِ، يا ربّ هذين الكفّين، يا شيطان هاتين اليدين، أصابعك وهي تلمع من الزّيت، من رائحة القرنفل والحبّهان والقرفة والكُركم والزّعفران، وكفّيكِ وهما ترتفعان بأصابعهما العشر، وتهبطان بأصابعهما العشر، تنزلقان، تبطئان، تتوانيان، تسرعان، تنهجان، تتنفّسان، تستريحان، تستفيقان، تدوخان، ترتجلان، تلسعان، تقرصان، وجلدي يلمع تحت زيت أصابعكِ، وجسدي يذوب، ينحلّ، يسيل، جسمي أم جسدي، روحي أم نفسي، قلبي.. أم العُلِّية؟

هنا، بالضّبط هنا، وسط الكتفين، على التّرقوّة، على عضلة النّهد الأيمن وعضلة النّهد الأيسر، على كتفك الأيمن الذي تأذّى من فأر الحاسوب في يدك طيلة النّهار، وعلى الجدول الصّغير بين نهديكِ، على استدارة الحلمتين، على الهالتين الورديّتين تتفتّحان كي تزهر الزّهرة، وعلى الرّحيق يسيل ويختلط بلمعة الزّيت فوق أصابعي، وأنّة هنا، وأنّة هناك، وقلبي؛ العنيد، الغبيّ، يرقص رقصة الفريسة تحت سهام القنص التي اخترقت لحمه، لحمه الأحمر، المدمّى، المجروح، المنتهك، الذي لم يعد يصلح لا للطّهي ولا للمضغ ولا لكلاب الطّريق الضالة..

قلبي..
كلب ضال
طرده أصحابه لكثرة نباحه
أجرب
ويعوي
كي يخيف الذّئاب البعيدة
مخفياً ذيله بين فخذيه
حين يعوي.

* * *

سكّين المطبخ لم يكن حاداً بما يكفي لفصل السّاق التي سَمُكتْ واعْرضّتْ في حركة واحدة، كان عليّ أن أمسك بها جيّداً بكفّي اليسرى لأتمكّن منها وأنا أقطعها بكفّي اليمنى من فوق الجذر الغائب في التّراب، كنت مثلكِ حزيناً على انتهاء حلمنا، لكنّني في موضع ما من داخلي كنت سعيداً، وفرحاً بأنّ صبرنا طوال هذه الفترة الطّويلة قد أثمر في النّهاية عن هذا الحصاد، رفعت السّاق التي انفصلت عالياً، والتي فاجأتني بثقلها بما تحمله من أغصان وفرع عامرة:

على الأقل لدينا ما سيكفينا لأربعة أشهر قادمة، أو ربّما خمساً.

تعتقد؟!

كانت الخطوة التّالية هي فصل الأغصان عن السّاق ولفّها في ورق جرائد، وتركها تذبل في مكان معتم لمدة أسبوعين، وهو ما بدأنا نفعله بمجرّد أن وضعت الشّجرة الصّغيرة فوق طاولة المطبخ، بدأت أفصل الأغصان واحداً تلو الآخر بالسّكين، أناولكِ إياها وأنت تضعينها فوق صفحتين من صفحات الجرائد المفتوحة أمامك، كنتُ ألمح أصابعك ترتجف وأنت تلفّين الغصن بداخل الورق حتى يغيب تماماً، ثم تضعين اللّفة في صندوق بلاستيكيّ جذبتْه من تحت فراشكِ، لم أعرف أبداً السّبب في ارتجاف أصابعك حينها؛ إن كان من السّيجارة الملفوفة التي تدخّنينها، أم من حزنك على أرملتنا البيضاء؟

بعد أن أنهينا فصل جميع الأغصان عن السّاق، واطمئناننا بأنّها ترقد جميعها الآن في العتمة الدّافئة تحت فراشك، دخلنا سوياً إلى الحمّام لنغسل كفوفنا من أثر المادة اللزجة التي خلّفتها الشّجرة على أصابعنا:

كأنّنا نغسل أيادينا من دم ذبيحة!
تفاءلي، فلن يكلّفك التّفاؤل شيئاً!

خرجنا سويّاً من الحمّام، ونحن نحاول أن نرسم ابتسامتين مزيّفتين على شفاهنا، وما إن اقتربنا من طاولة المطبخ، حتى صدمنا مشهد الساق فوق الطاولة، كانت متغضّنة وعجوزاً، عارية من الأغصان والأوراق، كجثّة.. تم التّنكيل بها.

* * *

اللحظة التي ليس لها قبل ولا بعد، اللحظة المنسية بين شهيقين أو زفيرين، الخطّ الفاصل بين السّالب والموجب، النّخاع الذي تجده في العمود الفقريّ لظهر دجاجة تُحطّم عظامها بين أصابعك لتأكله؛ خيطاً رفيعاً من الهلام الأبيض الشّهيّ، اللحظة الصّفر، قبل أن ينخلق الواحد وما يليه من أرقام، وقبل أن ينزل الرّقم إلى وحل ما تحت الصّفر، اللحظة التي تفلت دائماً منك، رمشة العين،

الغُفْل،

بنت الملاعين.

* * *

من هذه الغرفة المعتمة النّائية، أستطيع أن أقول إنّ كلّ فعل بشريّ له سحره الخاصّ تحت تأثير المخدّر، الفعل البشريّ العاديّ والمألوف والرّوتينيّ، يصبح فعلاً استثنائياً وجديداً ومغايراً، حين تمارسه وأنت واقع تحت تأثير هذه النّبتة السّحريّة، فعلك اليوميّ البسيط والسّاذج، يصبح حالة من البهجة والمتعة التي تضربك في العمق حين تفعله وأنت مخدّر، خذ مثلاً متعة غسل أسنانك بعد سيجارتين من الماريجوانا أو الحشيش المغربيّ الصّافي، بصحبة كأسين من البيرة، ستجد أنّك لا تمارس الفعل تحت إلحاح العادة أو الرّغبة في المحافظة على النّظافة اليوميّة، أو اتباعا للقانون الأبويّ المتوارث جيلاً بعد جيل: "يجب غسل الأسنان مرّتين على الأقلّ في اليوم"، لا، على الإطلاق، فقط جرّب وأنت ستشعر بالفرق، ستشعر وأنت تغسل أسنانك بعد سيجارتين من مخدّرك المفضّل بنفسك مستكيناً ومستسلماً ومستلذّاً لحركة الفرشاة في فمك، على لثتك الحساسة أصلاً لخربشات الفرشاة، ستجد أنّك تحرّك يدك على الأسنان والضّروس كأنّما تتعرّف عليها للمرّة الأولى، النّشوة النّاتجة عن حركة أسنان الفرشاة الخشنة على لثتك وأسنانك ستضربك في العمق، فتنتشي لها، ستجد كفّك الممسكة بطرف فرشاة الأسنان تتحرّك ببطء أكثر، كأنّها تعطي كلّ سنّ وكلّ ضرس حقّه الكامل من احتكاك أسنان الفرشاة على سطحه وجوانبه وجذوره، ستستلذّ بهذه الحركة الميكانيكية الخشنة لدوران رأس الفرشاة على فكّيك، سواء كانت فرشاة أسنان كهربائية أو يدويّة، ستشعر أنّ أصابعك تضغط لتحكّ هذه السنّ بقوّة وخشونة ونعومة، كأنّ كلّ المتناقضات اجتمعت على هدف واحد، هو محبّة هذه السنّ وهذا الضّرس،

المحبّة بكلّ ما فيها من تفاصيل وتفاصيل التّفاصيل، الحنوّ حين تمسّ أطراف الفرشاة الخشنة المدبّبة لحم اللثة النّاعم الورديّ بخفّة، قبل أن تدوس عليها بقوّة تحت تأثير أصابعك التي تجسّ قوّة الحركة والاحتكاك بملايين قرون الاستشعار الكامنة فيها، ستجد أنّك مستسلم تماماً لطعم معجون الأسنان المرّ، مستلذّاً الحرقة المميّزة التي تصيب لسانك من أثر نكهة النّعناع المركّزة القويّة، التي تتميّز بها أغلب أنواع معاجين الأسنان، هذه اللسعة التي ربّما تنفر منها في الصّباح وتكاد تصيبك بالغثيان، ستكون مصدر تلذّذ لك وللسانك وأنت تحت تأثير سحر المخدّر.

كلّ فعل أفعله بعد دخولي "الحالة صفر" أراه أمام عيني بطيئاً، متمهّلاً، متأنّياً، لا يدفعه شيء ليكون أسرع، ليجري، ليعدو حتى تنقطع أنفاسه، ويموت، في "الحالة صفر"، وتحت تأثير سجائر الحشيش، تعلّمت أن أحبّ الحياة، أستعذبها، أرتشفها قطرة.. قطرة، أتأمّلها بطيئاً، أتحسّسها مثلما يتحسّس الأعمى وجه محبوبته، تلك التي لم يرها من قبل، تصبح أصابعه عينه التي يراها من خلالها، يتحسّسها بأطراف أطراف أنامله، فيما عتمته ترسم له الصّورة المشتهاة، والتي ستنطبع في أغور نقطة من كيانه.

هنا الأمر، أنا لا أدخّن المخدر لأنّني أريد أن أهرب من الحياة، بل لأستعذبها، لأتهجّاها، لأقطّرها قطرة.. قطرة، مثل صانع عطور يجمع ملايين الزّهور ليحوّلها كلّها في النّهاية إلى قطرات عطر

معدودات، أدخّن المخدّر لأنّه العلاج الوحيد الذي أثبت نجاحه على مدى العصور، العلاج الذي جعل هذه النفوس، ترى نفوسها بصورة أوضح وأكثر حدّة، الحشيش هو النّبتة الأصل، المنبع، الجنّة الخضراء المنبوذة والمشوّهة وسيئة السّمعة.

تذكر حين قابلتكَ للمرّة الأولى، كنت أتشاجر مع امرأة في البار، وكنتَ منزوياً في الرّكن ذاته، تدخّن وتشرب البيرة باستكانة من ليس عليه فعل شيء، في هذه اللحظة ظننتك مخدّراً، ربما لأنّك في جلوسك وسط كلّ هذا الحشد وكلّ هذا الزّحام والضجيج، كنت وحدك تماماً، مختلياً بنفسك في بقعة ما، بعيدة، ونائية.

لو سألتني الآن عن سرّ استمرار علاقتنا غير المفهومة، سأقول لك بصراحة إنّ صورتك وأنت جالس في هذا الرّكن المعتم من البار، غير ملتفت إلا إلى داخلك، هي سرّ استمرار علاقتنا العجيبة.

ربّما تندهش الآن من أنّني أكتب لك أنت كلّ هذه التّفاصيل، التي ربّما عبرت ملايين المرّات في حواراتنا اليوميّة، وقتلناها جدلاً وآراء متناقضة ومشاجرات..

أكتبها لأنّي أفتقدك، أفتقدك جداً، وأحتاج أن أجلس الآن بجوارك في غرفة معتمة، نفترش الأرض وحولنا سجائرنا وخمرنا، وعتمة تلفّنا في هذا الحضور الطّاغي لمعنى الأمان، أفتقد هذه اللحظة الرّخوة.. الملساء.. النّاعمة.. الآمنة.. غير المبالية بشيء...

اللحظة الفاترة.. النّهمة..
التي أغمض فيها عينيّ وأنا أدفع تنهيدة طويلة، كأنّني أزيح غيمة رمادية مستقرّة على فتحة التّنفّس.

أعرف أنّك تبتسم الآن، وأنا أحبّ أن أرى ابتسامتك، تذكر حين كنتَ تزيح الأشياء المحيطة بكَ حولنا، لتريح رأسك على فخذي بعد سيجارة الماريجوانا، وأنت تلفّ ذراعك حول ردفيّ، إممممم، كنت حينها أنظر إلى وجهك في غبش العتمة والدّوخان الخفيف، لأرى ابتسامة اللذّة تنخلق ببطء، كبرعم يشقّ الأرض ويظهر للحياة، ينجلي تحت نور الشّمس ويهتزّ من أثر الرّيح، لم أكن أعشق هذه الابتسامة المخاتلة لجمالها أو عفويّتها فقط، بل لأنّها كانت تعطيني الإشارة الأولى على أنّك عبرت ضفّتنا إلى الضفّة الأخرى، وأنّك تمدّ لي يدك الآن، لتساعدني في العبور إليكَ.

تدخين المخدّر وشرب الكحول معك، لم يكن هدفاً في حدّ ذاته، بقدر ما كان وسيلة لاكتشاف ذاتي، للتّعرّي ورؤية النّدوب التي تخفيها يقظتي وتعميني عنها، حين كنت أدخّن أو أشرب مع آخرين، كنت دائماً مع آخرين، لست وحدي، وهذا ما لم أشعر به معك، معك تعلّمت أن أكون وحدي، مع نفسي، دون حائل بيني وبينها، ربما ستعتبر ما أقوله الآن رومانسية مفرطة كما كنت تقول، لكنّني أعرف، بل وأومن أنّك أيضاً شعرت وتشعر بذات الشّعور الذي أحاول التّعبير لك عنه الآن، لأنّك أيضاً خبرته جيداً داخلك، السّنوات الطّوال التي جمعت بيننا، والتي تشهد على

استمرارنا سوياً حتى اليوم دون زواج تقليديّ، هي أكبر دليل على أنّنا متفاهمان ومتّفقان تماماً، على الأقل في نقطة توحّد كلّ منّا مع ذاته.. في وجود الآخر.

في صحتك، بيرة بلجيكيّة بُنّية اللون، وذات رغوة برونزية كثيفة..

لو كنت جواري الآن، لكنت قرصتك في فخذك وأنا أقبّل شفتيك، طالبة منك بنعومة أفعى، أن تمرّر أصابعك في شعري وتدعك فروة رأسي، لأشعر بتلك النجوم التي تلمع وتنطفئ سريعاً في ركن ما من أركان دماغي المخدّر..

لو كنت جواري الآن، لكنت استندت إلى كتفك وكلّ منّا يدخّن مخدّره المفضل، أضع رأسي على صدرك، وأنا أشعر بنعاس الخمول الشّهي ينتشر في أوصالي بجوارك، ويدك تقترب من شفتيّ ممسكة بالسيجارة، فأسحب نفساً طويلاً لأخرجه في بطء وتلذّذ.

أعرف أن ابتسامتك انفجرت في قهقهة مدويّة، وأنّك تقول في نفسك الآن أنّني امرأة مجنونة..
نعم، مجنونة..

ما زلت أدخّن بشراهة، ورغم الكمّيات الكبيرة التي أستهلكها يومياً من أجود أنواع الحشيش، إلا أنّ "الحالة صفر" أصبحت نادرة جداً..

وأكثر ممّا تتخيّل!

* * *

كتبت في الفترة من: يونية ٢٠١١
وانتهت في نوفمبر ١٤ ٢
بين:
أنتويرب - بون - أمستردام - القاهرة - مارماريس
بوخارست - مراكش - برلين - ليشبونة

شروط الدّخول إلى الحالة صفر

- الزّهرة ٧
- الورقة ٣٧
- السّاق ٦٩
- الجذر ١٠٣
- البذرة ١٣٧

عماد فؤاد

- شاعر وكاتب مصري من مواليد ٢٢ أكتوبر ١٩٧٤
- تُرجمت قصائده إلى العديد من اللغات، من بينها: الإنجليزيّة والفرنسيّة والهولنديّة والأسبانيّة والألمانيّة والفارسيّة واللاتفيّة والروسيّة والرومانيّة.

المجموعات الشعرية:

- "عشر طرق للتَّنكيل بجثَّة"، دار الآداب، بيروت، ٢٠١٠
- "حرير"، دار "النَّهضة العربية"، بيروت، ٢٠٠٧
- "بكدمةٍ زرقاء من عضَّة النَّدم"، دار "شرقيات"، القاهرة، ٢٠٠٥
- "تقاعد زير نساء عجوز"، دار "شرقيات"، القاهرة، ٢٠٠٢
- "أشباح جرَّحتها الإضاءة"، "ديوان الكتابة الأخرى"، القاهرة، ١٩٩٨

أنطولوجيا:

- "رُعاة ظلال.. حارسو عزلات أيضاً"، الإصدار الأوّل لأنطولوجيا النَّص الشِّعري المصري الجديد، جمعية البيت للثقافة والفنون، الجزائر، ٢٠٠٧

- قيد النشر: "ذئبٌ.. ونفرش طريقه بالفخاخ"، الإصدار الثّاني لأنطولوجيا النَّص الشِّعري المصري الجديد بين ثلاثة أجيال.

www.emadfouad.com

الذكريات هي الجحيم، تستطيعين استعادتها بالمخيّلة، لكنكِ لا تستطيعين الرجوع إلى لحظة وقوعها، تحرقكِ بنارها في الحالتين، وكنتُ أظنّ أنّني بعد كلّ هذه السنين أصبحت صانع زجاج عجوز ومدرّب، يعرف كيف يتفادى اللسعات من كتلة الذكريات السائلة التي تضعها الماريجوانا بين كفيه، لكنني اكتشفت أنّني مازلت أتعلّم كل يوم من رعونة كتلة الذكريات، صحيح أنّني كنت أستمتع بحالة بلورتها وتشكيلها من جديد، بحالة الاقتراب منها وتلمّس نتوءاتها التي سرعان ما تصل بي إلى مواضع نعومتها أو خشونتها، إلا أنها لم تحرمني متعة اللسعات من وقت إلى آخر، متعة الوجع المفاجئة التي تلسعكِ في الموضع الذي لم تتصوري أنها قادرة على الوصول إليه.

971-977-351-741-0

ميريت

تصميم الغلاف: غادة خليفة